اقرأ

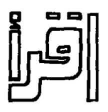
د. حسين فوزى النجار

الدكتور محمد حسين هيكل مفكراً وأديباً

89

H

دار المعارف



[٥٥١]

الدكتور محمد حسين هيكل

مفكراً وأديباً



د. حسين فوزي النجار

الدكتور محمد حسين هيكل

مفكراً وأديباً

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

تقديم

ماأحسب إنسانًا تمثل جيله كما تمثله الدكتور محمد حسين هيكل، وما من إنسان كان تاريخه تاريخًا لأمته كما كان الدكتور هيكل فقد كان رجلًا فى أمة وأمة فى رجل، وكان رائد فكر، وإمام نهضة، ترك بصماته واضحة جلية فى كل عمل تولاه، وفى كل فكر راده، فكان النغم العذب فى سيمفونية رائعة الأداء، وكان القول الحق فيما يعجم من قول، وكان الحكمة البالغة إذا غامت الحكمة فى متاهات الرؤى، وكان الترفع فى غير استعلاء، والكبرياء بلا تكبر، والتواضع بغير لين، وهو الكاتب الذى استهدى فكره منذ البداية على يقين ثابت لا يتغير ولم يتبدل، وهو المصرى الخالص فى تربة مصرية خالصة، والعربى المسلم فى صدق وإيمان، وكان أول من عرف نفسه واستدل على شخصيته بين أقرانه، فاستقام له منهج البحث والمعرفة بعد جهد ولأى، وكانت حياته صورة لتلك الجرأة وهذا العناء فى تاريخ جيله.

ويصور الدكتور هيكل هذا التطور فى تفكيره تصويرًا بديعًا فيقول، وكأنه يصور التطور فى تفكير جيله عامة:

«وقد حاولت أن أنقل لأبناء لغتى ثقافة الغرب المعنوية وحياته الروحية لنتخذها جميعًا هديا ونبراسًا، ولكننى أدركت بعد لأى أننى أضع البذر فى غير منبته، فإذا الأرض تهضمه ثم لا تتمخض عنه ولا تبعث الحياة فيه. وانقلبت ألتمس فى تاريخنا البعيد فى عهد الفراعنة موئلاً لوحى هذا العصر ينشئ فيها نشأة جديدة، فإذا الزمان وإذا الركود العقلى قد قطعا ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد يصلح بذرًا لنهضة جديدة، فرأيت أن تاريخنا الإسلامى هو وحده البذر الذى ينبت ويثمر ففيه حياة. تحرك النفوس وتجعلها تهتز وتربو. ولأبناء هذا الجيل فى الشرق نفوس قوية خصبة تنمو فيها الفكرة الصالحة لتؤتى ثمرها بعد حين».

فما إن صدر كتابه «حياة محمد» فى بواكير الثلاثينيات حتى مضى رفاقه على غراره، فخاض العقاد فى عبقرياته ملامح العظمة والتفرد من أبطال المسلمين، وأقبل الدكتور طه حسين يجتلى قصص السيرة ملحمة أشبه بملاحم الإغريق، حتى أقبل على تاريخ الراشدين، فصاغ منه ملحمة تفوح بعبق الأدب من ثنايا التاريخ وإن جنت نفحة الأدب وطلاوة العبارة على واقع التاريخ.

وكان هيكل هو الرائد كما كان الرائد من قبل واستوى على الطريق قبل أن يستوى أقرانه على طريق، فبينما كان العقاد يلم بالمحافل والصحف كاتبًا وشاعرًا وناقدًا، وكان المازنى يلازمه

المسيرة، وبينما كان طه حسين يغشى الجريدة ويكتب فيها شعره ونثره، ويجد من حدب محررها وأستاذها لطفى السيد ما يبهجه ويسر به، كان يغشى فى نفس الوقت محافل الشيخ عبد العزيز جاويش فى صحف الحزب الوطنى فينشد شعره ويلقى أحاديثه ويلقى منه الحدب والرعاية، على ما بين لطفى السيد، وعبد العزيز جاويش من نقائض وتباعد فى الرأى، كان هيكل قد وجد فى الجريدة ندوته ومحفل قلمه، فلم يكتب فى غيرها حتى احتجبت، واجتمع الأنداد: هيكل، ومصطفى عبد الرازق، وطه حسين، ومنصور فهمى، ومحمود عزمى فى السفور لكل ما يريد ولكل ما يهوى، وبينما ذهب العقاد وطه حسين والمازنى يحملون على شوقى ويزعون شعره ويعيبونه، يكتب هيكل مقدمة الشوقيات فى دراسة واعية ناقدة ويفى شوقى حقه فى إمارة القريض، حتى عاد الآخرون بعد زمن يحكمون على شوقى بما كان من حكم هيكل عليه، وإن بقى العقاد على منحاه فى القريض لا يرى لغيره إمارة فى مملكته.

وبينما يقف العقاد منافحًا عن الوفد إذا به ينقلب عليه ويسلقه بألسنة حداد، ويتنقل طه حسين بين صحف عديدة من جريدة السياسة إلى جريدة الاتحاد فجرائد الوفد حتى يصبح وزيرًا من وزراء الوفد دون أن يعلن وفديته، يبقى هيكل فى السياسة والسياسة الأسبوعية لا يتغير حتى تصير إليه رئاسة الأحرار الدستوريين إلى آخر يوم فى حياة الأحزاب السياسية القديمة، لينأى عن السياسة وأوضارها، وبينما يلوذ العقاد بفكره بعيدًا عن العهد الجديد مترفعًا فى إ

كبرياء، قويًا لا يلين ولا يخادع وإن وجد من العهد الجديد كل إكرام وتكريم فقد بقى بعيدًا عن مراميه السياسية، يرود طه حسين طريقا بين السادة الجدد، فيلقى بعض البر دون البر كله.

وتغرب شموس لتهل على الأفق شموس جديدة، ولكن الشموس الغاربة كان نورها قد عم لتلفح الجيل الجديد بوقدة مازالت تصهره وإن لم تفصح عن معالمه بعد.

وبين الأدب والفكر بعيدًا عن العمل السياسى نمضى مع الدكتور هيكل لنرى أيهما قد غلب عليه، أنفحة الأدب أم رؤية المفكر.

وشتان ما بين الفكر والأدب، وإن غام ما بينهما على كتّاب الجيل الجديد، فميدان الأدب فى الشعر والقصة والرواية والنثر الفنى، أما الفكر فميدانه فسيح متسع يلم بكل العلوم الإنسانية والاجتماعية، بداية من الاقتصاد والعلوم الاجتماعية والسياسية والفلسفة إلى التاريخ وفلسفته وغير ذلك مما يتصل بحياة الإنسان ومشاكله، وإن ألم الأدب بالفكر فعادة ما يكون عن طريق الرمز، أو فى صورة مواقف تتخلل العمل الروائى أو القصصى، أو يثور بها وجدان شاعر أو تتناول نقدًا لعمل أدبى نراه بالنسبة للعلوم الإنسانية والاجتماعية أقرب إلى الذاتية أو القواعد المقررة للنقد الأدبى دون منهج البحث العلمى للفكر الإنسانى، بداية من الاستقراء والقياس، وانتهاء بصرامة القانون العلمى الذى يلتزم بنظرة ثابتة للنظرة التحليلية.

وقد أتيح للدكتور هيكل أن يرود ميدان الأدب والنقد الأدبى، ويخوض فى ميدان التاريخ والسياسة ملتزمًا بالمنهج العلمى وقواعده الثابتة المقررة.

فلنمض معه فى رحلة حياته أديبًا ومفكرًا.

د. حسين فوزى النجار

الجذور

كان القرن التاسع عشر يطل على الكون إطلالته الأخيرة حين ولد الدكتور محمد حسين هيكل - عام ١٨٨٨ - قبل اثنى عشر عاما من أفوله، وبعد ستة أعوام من نهاية الثورة العرابية وبداية الاحتلال البريطاني، وكانت الطبقة التركية الحاكمة تسود وتتأله على المصريين، وتملك الأرض ومن عليها وما عليها فى صورة «جفالك» من آلاف الأفدنة يملكها أمراء الأسرة المالكة، ووسايا يملكها كبار رجال الدولة من الأتراك، وأبعديات وزّعت على الجند الأتراك، من أراضى الاستصلاح المستبعدة من قانون فك الزمام، وألزمهم محمد على بسكنى القرى وزراعة هذه الأراضى لا يبيعونها ولا يؤجرونها، ويقومون بزراعتها بأنفسهم، حتى يكون له فى القرى وفى أعماق الريف شيعة وولاة، ومنها تنحدر أسر (الجندى) المتناثرة فى أعماق الريف شمالاً وجنوبًا إلى وقتنا هذا، ولم يكن لمصرى أن يملك أرضًا، أو يلى وظيفة إدارية من وظائف الحكم والسلطة.. وبقيت وظيفة واحدة لم يقدر على انتزاعها من المصريين - أو الفلاحين - كما كان

يسميهم الأتراك أو الذوات، هي وظيفة (شيخ البلد) ليكون همزة الوصل بين الإدارة الحاكمة، وأبناء البلد من الفلاحين المسخرين للزراعة وغير الزراعة مما تحتاج إليه الدولة، ولشيخ البلد خمسة أفدنة يزرعها معفاة من الضرائب، ولا يملكها، عرفت باسم (مسموح المشايخ) حتى كان عهد الوالى سعيد باشا فأصدر فى ٥ أغسطس ١٨٥٨ (اللائحة السعيدية) التى أباحت الملكية الخاصة للأطيان، وحرية التصرف فيها بالبيع والرهن، وأعفت الفلاحين من المتأخرات التى كانت عليهم.. وقدرت حينذاك بثمانمائة ألف جنيه، وألغى احتكار المحاصيل الزراعية.

وأصبح للفلاح حرية التصرف فى حاصلاته واختيار ما يزرعه منها. ثم عمل على أن يشرك المصريين فى الوظائف الإدارية أو وظائف السلطة بنسبة الثلث منهم، والثلثين من الأتراك، وذلك فى وظائف حكام الأخطاط، ونظار الأقسام، (وكانت بداية السلم الوظيفى فى النظام الإدارى)، وكانت كغيرها من الوظائف الإدارية الأخرى، وقفًا على الأتراك وحدهم، ومن طريف ما جاء فى الأمر العالى الصادر فى ١٤ صفر ١٢٧٣ بذلك ما يلى:

«والآن وقد تعلقت إرادتنا بأن يكون حصول ذلك بساير الأقاليم، أصدرنا أوامرنا.. لتنتخبوا من عمد أبناء العرب المجربين الأطوار، المتصفين بحسن السياسة من يليق بالتقدم لمناصب الحكومة.. بأن يكون اثنين نظار أقسام من

أبناء ترك، وواحد من أبناء العرب كما أن حكام الأخطاط يكون منهم ثلاثة من أبناء ترك وواحد من أبناء العرب.. تبذل إليهم النصيحة بأنهم إذا سلكوا مسلك الاستقامة.. فقد استوجبوا الافتخار الذى حصلوا عليه.. وإن سلكوا غير هذا المسلك.. عوقبوا بسلب نعمة التقدم منهم، ونفى الفخر عنهم، فيحل بهم أشد عقاب، وأوله تخريب منازلهم..»

وكانت تلك هى البداية لظهور طبقة مصرية صميمة تملك الأرض وتلى وظائف السلطة، سواء فى المناصب المدنية، أو فى السلك العسكرى، حيث ارتقى عرابى وزميلاه فى ثورته على باشا فهمى الديب، وعبد العال باشا حلمى، من أنفار مجندين إلى رتبة القائمقام (عقيد) بعد ست سنوات من تجنيدهم، ولم يشجع إسماعيل هذه السُّنة التى استنها سعيد، ولكنه لم يستطع أن يغالب مجرى الأحداث، وبقيت الطبقة المصرية الصميمة تشق طريقها إلى الأمام، وكانت شرارة الثورة العرابية وشعارها - مصر للمصريين - وتعنى أن يكون حكم مصر لأبنائها، وليس لغيرهم فى حياة دستورية تنظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم.

ثم كان الاحتلال البريطانى، فلم يشأ أن يجهض نمو الطبقة المصرية الصميمة، ولم يشأ أن يعوق النفوذ التركى وسلطان الأتراك فى دوائر الحكومة، وكان ما واجهه المصريون من تسلط الاحتلال لا يقل عما واجهوه من قبل من تسلط الحكم التركى، حين استقبل

(محمد) ابن (الشيخ حسين سالم هيكل) عمدة كفر غنام، وأحد رجال تلك الطبقة النامية من أعيان الريف، صباه، وفى ذهنه «صورة قاتمة من حكم الترك، ومن حكم الخديويين أنفسهم - كما يقول - فكثيراً ما حدثنا آباؤنا وأجدادنا، وحدثتنا أمهاتنا وجداتنا، عن حكم أولئك النفر الذين كانوا يزدرون المصريين أشد الازدراء، ويحقرونهم أشد التحقير، ويضربونهم بالسياط لسبب ولغير سبب، وهذا هو ما يعبر عنه المثل العامى (آخر خدمة الغز علقة) والغزّ هم الغزاة الأتراك والجراكسة ومن إليهم، أما والخديو هو ممثل هذا الماضى الذى زال بتولى الإنجليز السلطان وإلغائهم السخرة والكرباج، فقد كان الناس من أهل الريف، وكان أبناؤهم من أمثالنا يفزعون إذا قيل لهم إن السلطان سيعود كما كان لصاحب السلطة الشرعية، وإن الغز سيتولون الأمر من جديد».

«على أن صورة هذا الماضى المظلم لم تكن بالنسبة لجيلنا أكثر من صورة يرسمها الحديث حكاية عن الماضى، بعد أن لم يبق فى الواقع منه شىء، أما الواقع فكان السلطان المطلق فيه للإنجليز، وكان الإنجليز من جانبهم يزدرون المصريين أشد الازدراء، ويحقرونهم أشد التحقير، وإن لم يكونوا يضربونهم بالسياط، كان مفتش الداخلية الإنجليزى، وإن صغر مركزه، يعدّ نفسه أكبر من كل موظف مصرى، بل أكبر من الوزير المصرى لأنه لم يكن يتلقى تعليماته إلا من رئيسه الإنجليزى، فإذا جاء مفتش الداخلية أو مفتش الرى إلى مديرية من المديريات أو مركز من المراكز، ارتجت المديرية وارتج

المركز واضطرب الموظفون المصريون كبارهم وصغارهم فزعًا من ملاحظة يبديها هذا المفتش الإنجليزى، يسوء أثرها فى مستقبل حياتهم كله، فإذا آن لهذا المفتش أن يغادر المركز أو المديرية بعد أن يمسك مأمور المركز بركاب الجواد الذى يمتطيه حتى يعلو جناب المفتش ظهره تنفس الجميع الصعداء، وحمدوا الله على السلامة».

وتبقى هذه الصورة بارزة فى ذهن الصبى «محمد» ويكون لها تأثيرها على مجرى حياته، وعلى فكره السياسى والاجتماعى من بعد، حتى ليرى بعد أربعين عامًا من تلك الأحداث، ومن حياة دستورية تمتعت بها مصر منذ صدر دستور ١٩٢٣ أن الحرية التى يمنحها الحاكم المطلق لاقيمة لها مالم يستطع الشعب الدفاع عنها والاحتفاظ بها وكانت الأوتوقراطية الملكية وأهواء الإنجليز والأحزاب قد عصفت بالحكم النيابى والدستور أكثر من مرة «وقد خولف الدستور – كما يقول الدكتور هيكل رئيس الأحرار الدستوريين ورئيس مجلس الشيوخ بعد ثمان وعشرين سنة من صدور الدستور– أول ما خولف بعد سنة واحدة من نفاذه حين حل مجلس النواب فى الأيام الأخيرة من سنة ١٩٢٤.. وخولف الدستور للمرة الثانية فى سنة ١٩٢٨ مخالفة جعلت الملك لا الأمة مصدر السلطات كلها، ذلك حين أقال الملك فؤاد أول وزارة ألفها مصطفى النحاس باشا، فقبلت الوزارة هذه الإقالة كما يقبل الموظف قرار مجلس الوزراء بفصله أو بإحالته إلى المعاش... ولم تنهض الأمة بأى لون من ألوان رد الفعل ضد ماحدث من ذلك، فأصبح سابقة فى نظام الحكم لا معدى

لرئيس فى أية وزارة، ولا معدى لأى وزير من أن يدخلها فى حسابه».

«ولم يكن الملك مع ذلك مطلق اليد دون رقيب، فقد دلت الحوادث خلال ثمان وعشرين سنة منذ صدور الدستور، على أنه لا يلجأ لإقالة وزارة من الوزارات، ولا لحل مجلس النواب، إلا حين كانت علاقات مصر وإنجلترا تضطرب أو يخشى اضطرابها، مما يشهد بأن ما انتقل إلى يد الملك من حقوق الأمة كان قسمة بينه وبين إنجلترا، وكان لإنجلترا منه نصيب الأسد».

كانت تلك الصورة، صورة الاستبداد الخديوى، وصور الطغيان الإنجليزى ماثلة فى ذهن محمد حسين هيكل، التلميذ بمدرسة الخديوية الثانوية فى العقد الأول من القرن العشرين – ولم يكن له حينذاك – كما يقول – «فى أمور السياسة ولا فى أمور الاجتماع رأى مكون» حتى أخذ يحيط بها حين انتقل إلى مدرسة الحقوق، ورأى كثيرين من زملائه «يبدون لمصطفى كامل ولحزبه تشيعًا لم تطاوعنى نفسى على مشاركتهم فيه قبل أن أتبين الحقيقة من أمره» فنم ذلك عن استقلاله فى الرأى واتجاهه الموضوعى فى الحكم على الأشياء لا يأخذ فيها بأمر إلا ما يهديه إليه عقله وتفكيره ومنطق الأحداث بعيدًا عن أى مؤثر عاطفى.

وقد رأى فى دعوة مصطفى كامل ميلاً إلى تركيا، وانحيازًا إلى الخديو، على مالاقت مصر تحت حكم الخديويين من عنت واستبداد، ولم تحفل الآستانة بما يلقاه «أبناء مصر من مظالم الخديويين واستعلاء

الترك على المصريين وازدرائهم وتحقيرهم لهم، فلما عجزت تركيا عن مواجهة إنجلترا فى حادث طابا عام ١٩٠٦ بدا أن تركيا لا تستطيع الدفاع عن سيادتها على مصر، ثم كان فى سياسة الوفاق بين الخديو والمعتمد البريطانى ما نأى بالخديو عن تأييد مصطفى كامل فى حركته الوطنية، وحين أخذ مصطفى كامل يدعو إلى الدستور فى أخريات حياته انفصم ما بين الخديو والحزب الوطنى من تعاون ووفاق، وجاءت هجرة محمد فريد إلى أوربا، وقد رأى أن الدفاع عن حقوق مصر أسلم فى أوربا منه فى مصر، لتترك الميدان فسيحًا لطغيان الإنجليز وتطلع الخديو إلى السلطة.

وفى تلك الآونة بدأ تكوين الأحزاب المصرية، وكان أولها حزب الأمة، فأصدر الجريدة واختار أحمد لطفى السيد ليرأس تحريرها، ولم يكن حزب الأمة غير مجلس إدارة شركة الجريدة، قبل أن يعلن عن قيامه. وكان من رأى لطفى السيد منذ البداية أن تعتمد مصر على نفسها فى تحقيق استقلالها، فلا أوربا ولا الدولة العثمانية مما يعنيهما استقلال مصر، ولن «يحرر مصر إلا المصريون أنفسهم» وهى الفكرة التى أقنعه بها الأستاذ نافيل – كما يقول فى (قصة حياتى) حين بعث به الخديو إلى سويسرا لاكتساب جنسيتها ويعود إلى مصر ليحرر جريدة تقاوم الاحتلال البريطانى، ولكنه عاد ليقدم للخديو تقريراً يقول فيه: «إن مصر لا يمكن أن تستقل إلا بجهود أبنائها، وإن المصلحة الوطنية تقضى بأن يرأس الخديو حركة شاملة للتعليم العام».

فلما صدرت الجريدة عام ١٩٠٧ بهذا الفكر الجديد الذى انتهى إليه لطفى السيد قبل ذلك بأعوام، قامت دعوتها على المطالبة بالدستور تنظيماً للعلاقة بين الحكام والمحكومين، وكان أول من أطلق على الخديو صاحب السلطة الشرعية، وعلى الاحتلال صاحب السلطة الفعلية، وبين السلطتين، لابد أن يكون للأمة كيانها الذاتى، ولن يتحقق لها ذلك مالم يعترف لمصر بالاستقلال على أساس قومى تتحقق فيه سيادتها الذاتية، وأن يقوم الحكم فيها على أساس ديمقراطى يستمد سلطته من الأمة، والعمل للارتقاء بالتماس أسبابه الاقتصادية والاجتماعية والعلمية، ونشر التعليم بين أبناء الأمة، وتجديد الحياة المصرية لتلحق بحياة الأمم الراقية، وكان قاسم أمين قد أخذ يدعو لتحرير المرأة وتعليمها، وأصدر كتابيه «تحرير المرأة» (١٨٩٩) و «المرأة الجديدة» (١٩٠٦)، وكان الإمام محمد عبده قد أخذ يدعو إلى كسر الجمود الذى ران على الفكر الإسلامى، وقضى على الأمم الإسلامية بالتأخر، وجعلها طعمة للاستعمار الأجنبى، لأنه قيد العقل فى هذه الأمم الإسلامية بقيود منعته من الانبعاث فى تفكيره إلى غاية مايستطيع بلوغه - كما يقول الدكتور هيكل فى مذكراته السياسية عنه - لإدراك الحق والجمال والجلال فى خلق الله جل شأنه، وللسمو بذلك إلى مرتبة الإيمان بالله إيماناً حقاً مستنيراً، يسمو بصاحبه فوق كل عبودية لغير الله ذى الجلال..... «كان الشيخ محمد عبده وكانت دعوته موضع إعجابى

وقد دعانى ذلك لقراءة كتابه (الإسلام والنصرانية) وكتاب أستاذه السيد جمال الدين الأفغانى فى الرد على الدهريين، فلما توفى الشيخ محمد عبده، وبدأ السيد رشيد رضا صاحب مجلة المنار وتلميذ الأستاذ الإمام ينشر حياته، وبدأ ينشر الجزء الثانى المحتوى على مقالات الشيخ، أسرعت إلى اقتنائه وطالعته بعناية فائقة، وأذكر أنه قد كان لكثير من مقالاته فى جريدة (العروة الوثقى) التى كان يصدرها مع أستاذه جمال الدين، أثناء نفيه فى باريس، أبلغ الأثر فى نفسى، وقد كان للخصومة التى ثارت بين الشيخ محمد عبده والخديو توفيق أثناء الثورة العرابية، وماكان بينه وبين الخديو عباس بعد ذلك، أثره فيما كتبه عن محمد على الكبير مؤسس الأسرة الخديوية، فقد نشر عنه مقالاً ذهب فيه إلى أن محمد على حكم مصر حكمًا استبداديًا قاسيًا، فلم يترك رأسًا مصريًّا فيه كلمة أنا إلا قضى عليه».

وتحمس الشاب (هيكل) الطالب بمدرسة الحقوق لآراء الإمام محمد عبده فى الإصلاح، ولدعوة قاسم أمين فى تحرير المرأة، وكان أول مقال له فى الجريدة، وأول مانشر له عن (حرية المرأة) وأصبحت الجريدة من بعد وطوال صدورها محك قلمه وحدها، وقد يسرت له «صلة النسب التى تربط بين أسرتنا وأسرة لطفى باشا السيد أن أزوره فى الجريدة، وكان مديرها إذ ذاك أحمد بك عبد القادر الذى اتصل بى عند لطفى باشا، ودعانى إلى مكتبه وشجعنى على الكتابة فى الجريدة، وماكان أعظم

سروری يوم ظهر لی أول مقال فيها.... وقد أبدى لطفى باشا تقديره لأسلوبى ولطريقة تفكيرى» وكانت تلك هى البداية فى حياة امتدت فى عالم الفكر زهاء نصف قرن (١٩٠٧- ١٩٥٦).

تكوينه الفكرى:

ويتصل تكوين الدكتور هيكل الفكرى بقراءاته منذ صباه الباكر، وبيئته التى نشأ فيها، وفى إلمامه باللغتين الإنجليزية والفرنسية إلمامًا لم يتح لمعاصريه من المفكرين والكتاب، مكنه من أن يطالع آثار الفكر الإنجليزى والفرنسى على السواء. وأن يستوعب من ثقافة الشرق ومن ثقافة الغرب بنزعتيها اللاتينية الفرنسية، والانجلو سكسونية الإنجليزية، وأن يمزج بينها جميعاً ليتمثلها فكرًا هيكليًا خالصًا له تميزه وأصالته. وهو بين الثقافتين يسبر أغوار عالمه الذى ينتمى إليه، عالمه المصرى فى امتداده على الزمن امتداداً تاه فيه العقل عن جذوره الضاربة فى أغوار القدم «فإذا الزمان وإذا الركود العقلى- كما يقول- قد قطعا مابيننا وبين ذلك العهد من سبب قد يصلح بذرًا لنهضة جديدة» حتى يشوب بعد لأى وجهد إلى المنابع التى يستقى منها فكره الذى استقام عليه بما فيه من أصالة وقدرة على الامتداد.

ففى تلك السنوات من بواكير القرن العشرين كانت مصر تجتاز مرحلة المخاض العسير لولادة فكر مصرى متميز، وتودع آخر مراحل القلق الفكرى الذى يشوب الصراع بين القديم

والجديد. وبدأ الجيل الجديد، قبل أن تصفعه الموجة الغربية، وقبل أن ينهل من ورد الغرب، يهتز لمعركة القديم والجديد بعد أن أصبح للجديد قدرته على التحدى، كما كان الإمام محمد عبده فى دعوته لتجديد الفكر الإسلامى، وقاسم أمين فى دعوته لتحرير المرأة، ولطفى السيد فى دعوته إلى الديمقراطية والمصرية، وفتحى زغلول حين أخذ ينقل إلى المصريين روائع الغرب فترجم لهم «أصول الشرائع لبنتام» و «خواطر وسوانح فى الإسلام للكونت هنرى دى كلتزى» و «روح الاجتماع» و «سر تطور الأمم لجوستاف لوبون» و «سر تقدم الإنجليز السكسون، لريمون ديمولان» و «الفرد ضد المملكة، لسبنسر» وقد عرف لطفى السيد ما للترجمة من فضل على المعرفة، فأكب على ترجمة أرسطو، وقد رأى فيه معلمًا فى الفلسفة، ومعلمًا فى السياسة والاجتماع، فهو - كما لقبه العرب بحق - المعلم الأول على الإطلاق، وكما وصفه دانتى فى جحيمه «معلم الذين لا يعلمون».

وحين بدأ الجيل الجديد - جيل الدكتور هيكل وأقرانه - يتمثل الموجة الغربية ويعمل على تطوير الحياة المصرية بما يتفق وروح العصر والتقدم المنشود الذى حققته أوربا، وأخذ يمزج بين العقليتين المصرية والغربية فى جرأة يشوبها العناء، وإن حفلت بالخلق والابداع، إلا أنهم كانوا يكشفون فى نفوسهم كل يوم عن رواسب عميقة من تراث الماضى لا يتبينونها، وإن كانت تشدهم إليها شدًا لا يستطيعون منه فكاكًا، فقد اجتاحتهم

الموجة الغربية، وكانت من القوة بحيث قذفت بهم مبهورين بالجمال والجلال والإبداع العقلى الذى حفل به الفكر الأوربى فى القرن التاسع عشر بعيدًا عن جذورهم الأولى، يدفعهم التحدى لملاقاة الحركة المحافظة التى سفرت وهى تجتاز صحوة الموت عن جمود اتسم بالعنف، فلما انتهت المعركة بانتصارهم إذ بهم يعودون إلى هذا الماضى يكشفون عن روائعه، ويغوصون فى ملامحه، ورجعوا إلى نفوسهم يجتلون مكنونها، ويكشفون عن رواسبها القديمة «تلك الرواسب التى تذهب- على حد قول الدكتور هيكل- عبر آلاف السنين من تاريخ مصر القديم» واب كل منهم إلى الدار القديمة ينقب أرضها، ويجوس خلالها، ليجد فيها الزاد لفكر جديد، صاغوه كما صاغ الغرب ملامحه الكلاسيكية فى بداية النهضة الأوربية.

وتفرد الدكتور هيكل ببيئته عن أقرانه ومعاصريه من عمالقة المفكرين فى جيله، وكان لها من الأثر فى فكره ووجدانه ما لم يكن للآخرين من منتجعاتهم التى ينتمون إليها، وكان لبيئته من التفرد ما لم يكن لغيرها من البيئات الأخرى، فقريته فى دلتا مصر غير مدينة أسوان منتجع العقاد فى مطلع صباه، وغير مدينة مغاغة منشأ طه حسين فى صعيد مصر، وغير أحياء القاهرة التى تفوح بعبق القديم، وتطل على قبور الراحلين على حفافى الصحراء فى حى الإمام حيث نشأ المازنى، وقد تكون أقرب إلى منتجع مصطفى عبد الرازق فى (أبو جرج) ولكن شتان ما بين الدلتا والصعيد، وإن تقاربا فى

العصبية والسيادة، كل فى أسرته، وقد يقترب من منصور فهمى، أو من توفيق دياب، أو محمد عبد الله عنان، أو محمد زكى عبد القادر، وهم جميعًا من أبناء الشرقية والدقهلية، على استواء ما بين الإقليمين، ولكنهم يفترقون جميعًا فى منابعهم الثقافية، وقد لا تبدو البيئة ذات أثر كبير، فكلهم ينتمون إلى تراب مصر، وإلى طينها الذى يبرى الحديد، ولكنها تفرق بينهم فى الملامح العقلية والقدرات التى يهبها الله للإنسان، فإذا كان هناك قياس، فإنما هو بين من تقاربت لديهم القدرات والملامح العقلية التى تخوض بهم ميدانًا متشابهًا، وكانوا أربعة اجتمعوا فى ساحة واحدة، وتقاربوا سنا وفكرًا: هيكل، وطه حسين، والعقاد، والمازنى، جمعت الصحافة بينهم جميعًا، وخاضوا فى فنون الأدب على سواء، فكتبوا القصة والرواية، ولجوا فى ميدان النقد الأدبى، وإن تفرد كل منهم بنظرته ومنهاجه، وكان لهم فى ميادين الفكر الفلسفى والاجتماعى والسياسى جولات وصولات، مع اختلاف فى المنحى وتباين فى المنزع، وولج ثلاثة منهم ميدان التاريخ الإسلامى، وبقى الرابع - المازنى - يجوس ببضعه أطلال الحياة المصرية فى بسمة ساخرة أضناها الزمن.

وبقيت قراءاتهم فى منزع الصبا ترود ميادين الأدب العربى من الأصفهانى والميدانى والقالى والجاحظ، إلى سيبويه والجرجانى وابن مالك، وليس منهم من لم يقرأ الهلالية أو يستمع إليها على أنغام الربابة، وتهبط عليهم شياطين الشعر فيشعرون، إلا هيكل فلم يلج هذا الميدان شاعرًا، وإن تذوقه قارئًا، وخاض فى متونه وفنونه ناقدًا.

وطلقوا الشعر واحدًا بعد الآخر، وبقى العقاد يمسك بعنانه وينشد إمارته، فلما درج بهم الصبا إلى الشباب كانٍ لهم من الإنجليزية - اللغة السائدة فى المدارس - موردًا ومنهلًا، وكانت الفرنسية حينذاك لغة الثقافة الرفيعة سعى إليها طه حسين فتعلمها على كبر لينهل من وردها ما يراه قمينا بكاتب تشدّه الموجة الغربية فتغرقه أمواجها، وينفرد هيكل بينهم بورده منهل الثقافتين الإنجليزية والفرنسية وقد أمسك بناصيتى اللغتين معًا، ولكنه يعب من الفكر الإنجليزى قبل أن يرتحل إلى فرنسا فينهل من مورد الثقافة الفرنسية ما شاء، وإن لم تصرفه عن قراءاته فى الإنجليزية، ويستزيد العقاد من اللغة الإنجليزية، فيلم بثقافة الغرب عن طريقها.

وقد ألموا جميعًا بتيار عصرهم وبهرتهم دعوة الأفغانى، واستولت على مشاعرهم حركة تجديد الفكر الإسلامى التى يقودها الإمام محمد عبده، وقد توفى الأستاذ الإمام قبل أن يشبوا عن الطوق، ولكن بقيت تعاليمه تلفحهم وتقودهم إلى تجديد الفكر العربى والإسلامى، فثاروا بكل قديم وحملوا عليه، وعابوا «شوقى وحافظ» كما عابوا المنفلوطى ومصطفى صادق الرافعى إلا هيكل، فقد بقى للقديم فى وجدانه إثارة، وللجديد فى عقله بهر ما حفل بالرقة والخير والجمال، فإذا كان فى هذا الجديد لمحة من الشرق أو ومضة من روحه، كان به أشد بهرا، وأكثر حبًّا، فحين كتب «جان جاك روسو» كان ما حببه إليه - كما يقول - أمران، الأول: طريقته فى التفكير تكاد تكون شرقية، والثانى: شخصية المفكر الذى خلد على الدهر..

وفوق هذا وذاك حببه إلى فكرة سامية قائمة على أساسين متينين من العدالة الاجتماعية والإيمان بالعمل.

ثورة الأدب:

وكان لهيكل من الموضوعية والمرونة العقلية ما فاق به أقرانه، ووقف به عند منهج فكرى لا ينكر فيه القديم ولا يتعصب للجديد، ولا يهيم بالفكر الغربى فيصرفه عن فكره الشرقى الأصيل، وإنه ليرى «الأدب العربى يضطرب بعوامل الثورة منذ الثورة العرابية فى مصر.. من يومئذ بدأت الكتابة تخرج من الحظيرة الضيقة حظيرة الدواوين، ومن النطاق المحصور، نطاق التعليم لتتصل بالناس على اختلاف طبقاتهم، ولتصور لهم من نواحى الحياة ما يريد الكاتب تصويره.. فأية لغة يمكن أن تحقق هذه الغاية، ويمكن أن تبقى مع ذلك على الزمان؟ ليست هى اللغة الدارجة التى يتكلم الناس بها، لأن لكل إقليم لغة كلام تختلف عن لغة الإقليم الذى يجاوره.. ولغات الأقاليم لم يدون لها أدب له من الاحترام ما يجعل بعثه موضع فخار ومجد، فلا بدّ إذن أن تكون اللغة العربية الصحيحة لغة الكتابة ولغة الاتصال.. واللغة العربية هى كذلك لغة القرآن الكريم، فكيف ترتفع بالجمهور إلى حسن إدراك لغة القرآن؟»

وقد انتهت ثورة الأدب - كما يقول - فى تلك الآونة، إلى تلك الصورة: صورة لغة الكلام ولغة الكتابة، ولم يبق ثمة بحث أو جدل فى أن تكون العربية، لغة القرآن الكريم، هى لغة الكلام ولغة

الكتابة، «ولم يبق البتة قائل باتخاذ لهجات الكلام أساسا للأدب، وحل محل ذلك ما سمى القديم والجديد فى اللغة والأدب. وقد احتدمت معركة القديم والحديث هذه منذ سنين طويلة، وتنقل المحاربون فيها فى ميادين مختلفة.. وإلى يومئذ كانت الغلبة لأنصار تقليد الأدب القديم».

وتتصل ثورة الأدب على يد الشبان الذين أتموا دراساتهم فى أوربا قبيل الحرب العالمية (١٩١٤ - ١٩١٨) أو خلالها أو فى أعقابها ممتلئة صدورهم إعجابًا بالأدب الكبير الذى قرءوا والذى شهدوا على المسارح، موجهة عقولهم توجيهًا جديدًا على الطرائق العلمية الحديثة.. عادوا فنقلوا ميدان القديم والجديد فى الأدب ووجهوه وجهة أخرى غير لغة الكلام ولغة الكتابة، مما كان البحث فيه قد فرغ منه، وغير أساليب الكتابة بعد أن أسبغ عليها امتياز شخصيات بعض الكتاب طابعًا جديدًا، نقلها من مجرد المحاكاة إلى بروز الذاتية، هذا الميدان الجديد الذى انتقلت المعركة إليه هو صور الأدب وما يجب أن تكون.. هى صورة الأدب القومى الكبير، هى القصة والأقصوصة، وهى الشعر الوجدانى، والشعر التمثيلى..

هى حد المراحل التى مرت بها ثورة الأدب - كما يراها الدكتور هيكل - منذ الثورة العرابية حتى جيله، جيل الرواد فى تلك المرحلة الأخيرة، والتى رادها هيكل بروايته زينب.

ولا ينسى هيكل أن يشير إلى ما كان من «جهود عاقت سير

الحركة الأدبية، وحاولت من غير نجاح كبير إفساد اتجاهها.. ويكفى أن أشير إلى ما كان من مسعى متصل لجعل اللغة الدارجة لغة الكتابة، وما كان من محاولة قطع كل نسب بين الحاضر والماضى، ومن إظهار هذا الماضى فى صورة زرية غير جديرة بالاعتداد بها أو استلهامها» والعجيب أن تبقى هذه المحاولة قائمة لدى بعض من أوتوا من القدرة على الكلام أكثر مما أوتوا من القدرة على التفكير، فما يفكر فى هذا إلا مخبول أو موتور.

فإذا كان قوام الأدب ما ينبض به من معان وصور وعواطف وأحاسيس تعبر عن روح فياض تحلّق فى أجواء الخيال حرةٍ طليقة من كل قيد، فإن اللغة هى «الكساء الظاهر لهذا الرحيق الذى يعبر الأدب عنه» وقدرة الأديب فى التعبير عما يجول بخاطره من تلك الأحاسيس والمشاعر لا تفصح عن نفسها إلا فى قدرته اللغوية التى تمكنه من التعبير عنها «لهذا تراك إذا عرفت لغات عدة فقرأت فيها صورًا مختلفة من الأدب، لم يكن اللفظ هو ما يقفك عنده، بل كان ما يدل هذا اللفظ عليه وما يعبر عنه، وإذا كان اللفظ لذاته ذا قيمة فى الأدب من حيث موسيقاه، وما تهز هذه الموسيقى النفس، وما تعد العواطف لاجتلاء المعانى التى ينطوى عليها، فلن يسمو هذا اللفظ بالغًا ما بلغ رنينه ورصانته بمعنى غير سام»

لذلك نراه يعرض للغة النثر والشعر فى العربية، فيرى أننا كثيرًا ما يعوزنا «العثور على اللفظ العربى المقابل للفظ أجنبى يعبر عن فكرة أو إحساس فلا نجده».

ومازلنا بعد نصف قرن مما قاله الدكتور هيكل، ينوشنا العجز فى العثور على اللفظ الدقيق للمعنى المرادف فى ألفاظ الحضارات المتقدمة، وذلك لأننا «قطعنا الصلة بين حاضر اللغة وماضيها»، فالعربية مليئة بالألفاظ التى تسع كل معانى العصر. «وأخفق المجددون الذين أرادوا قطع الصلة بين حاضر اللغة وماضيها، ورجع أكثرهم إلى الدائرة التى يعمل فيها المجددون بعقل وحكمة، رجع أولئك إلى هذه الدائرة، كما تقدم إليها أنصار القديم خطوات واسعة» فأثروا اللغة العربية وبعثوها «بعثاً جعلها أداة صالحة لحياة الشعوب، التى تتكلم بها.. واقتضت لذلك بناء للنثر جديداً، وقد أصبح هذا البناء شامخا، ولكنه ما يزال فى حاجة إلى التعهد والصقل والصياغة وإلى السعة نفسها، حتى يسع كل حاجات العقل والنفس والعاطفة فى أبعد مداها ومراميها وأعماقها».

ومع ما كان فى الشعر من تجديد «حين افتن شعراؤنا فى وصف المنشآت والحوادث بما ليس له مثال فى الشعر القديم» إلا أنه بقى متخلفاً عن النثر، وما من رجاء لنهضة الشعر فى الشعراء «الذين كونهم العصر الماضى.. وإنما رجاؤنا أن تصدر الثورة المجددة التى ينبعث أصحابها فى طلب الكمال الشعرى لذاته عن الجيل الجديد.. وعلينا إذا أردنا معاونته على القيام بهذا الواجب أن نعاونه على تقرير حرية العاطفة بمقدار ما أعنّاه على تقرير حرية الفكر، وأن نوسع أمامه من آفاق الفن بمقدار ما نوسع من آفاق العلم، وأن

نفرض عليه من صور الحياة الماضية والحاضرة ما يسمح له بحرية الاختيار».

وكان الدكتور هيكل فى ميدان الفكر صاحب منهج يقوم على الموضوعية، وصاحب نظرية تقوم على إدراك التقدم والتطور الإنسانى وأثر ذلك على الأدب، وإدراك الأديب وتأثره بذلك، وبما لغلبة لون من ألوان الأدب على غيره مما نراه فى غلبة القصة والأقصوصة على غيرها فى أدب العصر، فالعالم قد اتصل بعضه ببعض اتصالاً وثيقًا، وستزداد هذه الصلة «كلما يسرت المواصلات اتصال أمم العلم، فإن أمكن أن يتوهم الإنسان، مجرد توهم، إمكان استقلال حى من الأحياء، سواء كان هذا الحى أمة أم فردًا، عن غيره من الأحياء فى شئونه المادية أو العقلية أو النفسية، فإن مجرد هذا التوهم اليوم مستحيل لكثرة الاتصال بين أمم العالم بعضها والبعض الآخر، وهو سيزداد كل يوم إمعانا فى الاستحالة».

وقد تقدم العالم فى هذا السبيل أكثر مما تنبأ به الدكتور هيكل منذ نصف قرن مضى، بعد أن طوت ثورة الإعلام الحديث صفحة الزمان والمكان، وغدت زادًا لأدب جديد ولصور من المتاع العقلى والنفسى إن كان للماضى ثمة أثر عليها، فإن ثورة التكنولوجيا وثورة الإعلام المعاصر قد قاربا بين المشاعر الإنسانية مما يلهم الأدب بصور جديدة تتمثلها وحدة فكرية وإنسانية تطبع أدب العصر بطابع قاهر غلاب.

هذا التطور الحضارى وهذا التغير فى حياة الإنسان وفى حياة

العالم لابد وأن يضفيا على الأدب وعلى ذات الأديب من الإبداع ما يتحكم «فى كل ما فى الكون وجعله بعض متاع الحياة لكل فرد من الناس، متاع أساسه البساطة والصحة... ولقد عاون العلم، وما يزال يعاون على توجيه الحياة فى هذا السبيل بما يربط بين أجزاء العالم، وما أخضع من قواه لحكم الإنسان، وما فسح لذلك من ميادين متاعه، فالتلغراف والطيران والراديو والفوتوغراف، وما إليها من جديد المخترعات قد جمعت العالم فى قبضة يد الفرد، وقربت بين أجزائه تقريبًا لم يكن يحلم به أسلافنا، أتراك تستمع إلى أصوات الخطباء والمغنين وألحان الموسيقى ممن سبقونا، وتستمع وأنت فى مقعدك إلى ما يجرى فى مختلف أنحاء العالم، وتصل فى ساعات إلى ما كان يقتضى من قبلنا أسابيع أو شهورًا ثم تظنك تحس الحياة على نحو ما يحسنها السلف، ويكون رحيقها منك ما كان رحيقها منهم؟ لعل من الناس من يرى رحيق الحياة عند السلف أشهى وأعذب من رحيق الحياة التى نعيشها، ومن يرى لذلك أن مظاهر هذا الرحيق من فن السلف وأدبهم كانت أطيب وأهنأ.. لكن الآداب مرآة العصر كما يقولون، وإن كان الأدب القديم مرآة للعصور التى يمثلها فى تصويرها الحياة وجمالها، وكان ذلك مما تجب دراسته لكمال ثقافة الأديب».

هذا ما كتبه الدكتور هيكل فى بداية الثلاثينات، وجمعه فى «ثورة الأدب» فى طبعته الأولى عام ١٩٣٣، وقد مر عليه منذ ذلك الحين نصف قرن ونيف، ومضى على وفاته عام ١٩٥٦ ثلاثة عقود تغير

فيها العالم هذا التغير الكبير الذى نشهده فى حاضرنا، وأصبح العالم مع ثورة الإعلام والتقدم التكنولوجى الهائل قرية صغيرة - كما يقولون - ترى أية صورة كان يراها لثورة الأدب فى ثمانينات هذا القرن، بعد أن اخترق الإنسان أجواز الفضاء ونزل على سطح القمر ؟

وقد أجاب على هذا السؤال، فالأدب يجب أن يواكب الحياة فى تقدمها وتطورها، وثورة الأدب هى بعض ثورة العلم وما تضفى على الحياة من تغير، فإذا كان الحنين الاجتماعى - كما يسميه (جون كينيث جلبريث) يشدنا إلى الماضى، فإننا لا نلح فى العودة إليه[1] «فنحن فى حاجة - كما يقول الدكتور هيكل - إلى الوقوف على أدب الجاهلية وعلى أدب الصدر الأول للإسلام، وعلى كل أدب سبق عصرنا لتبقى حياة اللغة متصلة على العصور».

الطريق والمسار:

كان الدكتور هيكل نمطًا فريدًا بين أقرانه ومعاصريه لم ينفصل عن جذوره، ولم يضن بالجديد، إلى مرونة عقلية ومزاج عقلى متكامل، وموضوعية لاتنحاز ولا تتشيع إلا لما يؤمن به، وثقافة عريضة تستند إلى كم من الدراسات والمعارف العديدة من القانون والاقتصاد، والفلسفة، وعلوم الاجتماع، إلى الأدب والفن، صاغت جميعًا فكره،

---

(١) جون كينيث جلبريث، وترجمة المؤلف: ساعة الجسم ص ١٢٥.

وطبعته بالاستقلال والاعتدال، وكان أن التقى الشرق والغرب فى فكره على وفاق ثم هى التى غذته بالقيم العليا لحياة تقوم على الحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية يقررها فى إهدائه كتابه «جان جاك روسو» وهو باكورة إنتاجه الفكرى، كما كانت زينب باكورة إنتاجه الأدبى[1] بتلك العبارة الطلية:

«إلى مصر الحرة.
إلى القلوب الخفاقة بمعانى الحرية والعدالة والإخاء.
إلى النفوس التى تأبى الضيم.
إلى العقول التى ترفض قيود الفكر.
إلى كل مصرى جدير بهذا الاسم - رجلا أو امرأة -
أقدم هذا الكتاب صورة لأب من آباء الحرية والمساواة، وقديس من قديسى العدالة الاجتماعية الصحيحة، ونصير متقدم من نصراء الإيمان بالعمل، أقدمه صورة ومثلاً.
وأرجو أن تجد مصر من أبنائها البررة من يقوم بتحقيق الأفكار الصحيحة فيه تحت سمائها البديعة الصافية، وفوق أرضها جنة الله على الأرض».

ويقول فى مذكراته السياسية حين استمع إلى خطاب «عدلى يكن» وهو يعلن قيام حزب الأحرار الدستوريين: «اغتبطت بهذا

---

(١) صدرت زينب فى طبعتها الأولى عام ١٩١٤ بقلم مصرى فلاح. وصدر جان جاك روسو فى طبعته الأولى عام ١٩٢١.

الخطاب ورأيت فيه سياسة تتفق فى جملتها وفى تفصيلها مع آرائى فهو يقدس الحرية الفردية وأنا أقدسها، وهو يكبر حرية الرأى، وهذه الحرية تحل من نفسى محل الإيمان الذى لايتزعزع، وهو على نزعته الفردية يدعو إلى العدالة الاجتماعية كما صورتها فى مقدمة كتابى عن - چان چاك روسو - الذى صدر قبل ذلك بعام وأشهر، وهو يحبذ الوحدة القومية، وقد كنت من دعاتها يوم كان الخلاف بين سعد وعدلى على أشده، وهو يؤيد حرية التجارة ما لم تحتج صناعة ناشئة إلى الحماية حتى تقف على قدميها وأنا من هذا الرأى، لى إذن أكبر الرجاء يوم تظهر (السياسة) أن أبشر بهذه المبادئ فى إيمان وقوة يحملان كل متردد على اعتناقها والاقتناع بها».

ولم تكن تلك النزعة إلى المساواة والعدالة الاجتماعية بعيدة عنه فى بواكير شبابه، ولعلها كانت أثرًا من آثار بيئته فى صباه الباكر، أو من آثار حياته فى باريس أو ثقافته الفرنسية حين كان يطلب العلم فى السوربون، موئل الفكر الحر حينذاك وبعد ذاك فكثيرًا ما أشار فى كتاباته إلى ما كان لحياته فى فرنسا ولثقافته الفرنسية من أثر فيما استهداه من إيمان بحرية الرأى ونزعة إلى المساواة والعدالة الاجتماعية، وفى قصته (زينب) وقد كتبها وهو يتنقل ما بين باريس ولندن وچنيف بعيدًا عن مصر فى طلب العلم، «صورة من صور الصبا... أحن اليوم إليه حنين القلب إلى مثوى محبوب ذهب ولن يعود... ولعل الحنين وحده هو الذى دفع بى لكتابة هذه القصة، ولولا هذا الحنين ما خط قلمى فيها حرفًا، ولا رأت هى نور الوجود».

وفى زينب يسفر عن إيمانه بالعدالة الاجتماعية، حين يصف كيف يعمل الفلاحون «دائمًا ومن غير ملال، ويرقبون بعيونهم نتائج عملهم زاهرة ناضرة، ثم يقطف ثمرتها سيد مالك، كم فكر فى أن يبيع قطنه بأغلى ثمن، ويؤجر أرضه بأرفع قيمة وفى الوقت عينه يستغل الفلاح نظير قوته الحقير» وينقد قانون التجنيد القائم حينذاك حين عجز إبراهيم عن دفع البدل النقدى ليعفى من التجنيد، وقد «تهيجت نفسه مشمئزة متألمة، وحنق ألا يجد بدلا نقديا يدفعه عن هاته العبودية.. لايجد ما يشترى به حريته كما يشتريها غيره ممن يملكون النقد، هكذا يفهم الناس معنى العدالة من أجل أنى غنى أعفى من الخدمة العسكرية عندنا ، ولأن آخر فقيرًا يساق برغم أنفه ليقاسى عذابها ويصلى نارها ويرجع منها موسومًا بطابعها».

وكان هيكل من أبناء تلك الطبقة المصرية الصميمة التى أخذت تسود الريف المصرى وترث ما كان للطبقة التركية القديمة الغالبة من ثراء ونفوذ، وكان «أبناء الريف المصرى يعيشون – كما يقول فى تقديم مذكراته السياسية – إلى أوائل هذا القرن العشرين عيش قبائل البادية أو عيشًا يشبهه كان لكل أسرة فى الريف زعيم أو شيخ يرجع إليه الأمر فيما جل ودق من أمور هذه الأسرة، وكانت كل قرية تدين لزعيم أكبر أسرة فيها بالطاعة، فهو للجميع أب يرجع إليه ويذعن الكل لرأيه، وكان عليه بحكم هذه الأبوة واجبات الأب عطفا على الجميع ومعونة للجميع».

أما الحياة في ظل هذا المجتمع الريفي حينذاك. فكانت كما يصفها فى مقال أعادت نشره مختارات دار الهلال عام ١٩٤٦، بعنوان «الحياة محبة» يقول فيه: «الحياة محبة، محبة شاملة لكل ما فى الحياة ولإخواننا بنى الإنسان جميعا، محبة صادقة تعطر جو الحياة كلها، وتجعل الناس يتحركون فيه على أنه الهواء الذى يتنفسون والنور الذى به يهتدون».

ثم يصف كيف كانت تمضى الحياة بلا فروق بين أفراد هذا المجتمع القروى فقد «كنا نحن الصغار نتناول الطعام فى الدار، أما جدى فكان يتناول طعامه فى المضيفة القائمة إلى مقربة من الدار الكبيرة، ومن باقى المبانى العائلية، ولم يكن قط يتناول طعامه من غير أن يحيط به من أهل البلد ومن الضيوف عدد غير قليل ومن هؤلاء أناس من أهل القرية عضتهم الحاجة فلاذوا بشيخ البلد يقضون أكثر وقتهم إلى مقربة منه، ويتناولون طعامهم، وإياه، ومنهم عدد غير قليل من أهله، أما الدار الكبيرة فلم يكن يقتصر تناول الطعام فيها على أهل الأسرة، بل كان التملية الذين يشتغلون فى المزارع يتناولون فيها طعام العشاء بعد عودتهم من عملهم، وكانوا يجلسون كتفًا إلى كتف مع أبناء العائلة ويشعرون جميعًا كأنهم أسرة واحدة».

كانت تلك هى المنابع التى استقى منها الدكتور هيكل فكره الأدبى وكان لها أعظم الأثر على تفكيره الاجتماعى والسياسى واتجاهاته العقلية وفى اعتباره لذاته، وهى التى نستطيع أن نفسر من

خلالها كل ما خاض فيه قلمه من كتابات أو تناوله من بحوث فالحنين إلى المنتجع وإلى البيئة قوام حبه لمصر فيهديها باكورته «زينب».

«إلى مصر.. إلى هذه الطبيعة الهادئة المتشابهة اللذيذة.. إلى هؤلاء الذين أحببت وأحب.. إلى بلاد بها ولها عشت وأموت.. إلى مهبط وهى الشعر والحكمة أول الأزل..»

وإكبار هذا الماضى الذى يفوح به عبق التاريخ على أرض مصر هو الذى جذبه إلى إحياء هذا الماضى البعيد الضارب فى أغوار القدم إلى مصر الفرعونية فى صورة أدب قومى، وقد راقته دعوة تلك الفتاة الكندية وقد «نزلت هى وأمها بالنزل الذى كنت به، وأقامت به أسبوعين.. وكنت أقدر الحاضرين على التحدث إليها بالإنجليزية، لأنها لا تجيد الفرنسية، وكنت يومئذ أكتب «زينب» وكانت لى يومئذ فى الأدب وما أرجو أن أجدد فيه من آثار أوهام طويلة عريضة، وعرفت «مس شلزك كاسلز» ذلك من أمرى.. فلما كانت الليلة التى اعتزمت فيها مغادرة باريس وجعلنا نتحدث بعد العشاء خاطبتنى فى ذلك المستقبل الذى كنت أرجو لنفسى ككاتب قصصى، فقالت:

كم أود لو استطعت أن تكتب تاريخ مصر فى صورة قصصية كما صنع سيرولتر سكوت بتاريخ إنجلترا.

وتبقى الفكرة عالقة بذهنه يغذيها - كما يقول - «جلال هذا التاريخ كله جلالا يوحى للطالب ويلهمه أقوى إلهام فى ميادين

الأدب القومى بما يجعله يقيم من صروح هذا الأدب آثارا شامخة باقية على التاريخ بقاء آثار مصر منذ الفراعنة إلى عهدنا الحاضر»

وكانت تلك البداية التى «لم تتم» وقد بدأت مباحثى عن أبيس العجل الإله ونشرتها فلم أجد من أحد نفورًا منها أو ازورارًا عنها..

ويمضى الدكتور هيكل فى محاولته فيكتب بعد «حديث أبيس» «حديث سميراميس» وينشرهما فى «أوقات الفراغ» ثالث مؤلفاته، ثم يكتب «إيزيس» و «راعية هاتور» و «أفروديت» وينشرها فى «ثورة الأدب».

ولا يقف فى بناء أدب قومى على هذه الصور التى تفوح بعبق الماضى البعيد الضارب فى أغوار القدم، بل إنه ليرى فى حياة مصر الحاضرة «فيضًا من مصادر إلهام الأدب فى مختلف نواحيه أغزر وأخصب مما فى غيرها، والمقاصير تنطوى من ذلك على مالا يقل عما تنطوى عليه الحقـول والمزارع» فيستلهمهـا قصصًا وإن كـان قليلا، ليجمعها بعد نشرها فى المجلات، فى كتابيه «فى أوقات الفراغ» و «ثورة الأدب» وهو قصص يستوحيه الواقع، بل إنها جميعًا مما يقوم على واقع حقيقى، فى حبكة روائية مشوقة، وإنه ليذكر أن وقائعها نقلت إلى مما شهدت دور القضاء، لأن هذه الدور تشهد من المآسى الوجدانية الشيء الكثير الذى يصلح مادة للقصص ويطبعه بطابع مصرى صميم، ويجعل الأدب الذى يستلهم مادته أدبًا قوميا بكل معنى القومى، وليست دور القضاء هى وحدها مسارح الوجدانيات وغير الوجدانيات مما يلهم الكاتب القصصى، ويلهم

الأدب أيًّا كان نوع الأدب الذى يريد أن يضع... وما على الكاتب إلا أن يستمع ويبحث ويحلل ليجد من غزارة هذا الفيض خير مادة لما يريد من صور الأدب القومى فى الحياة الحديثة.

وقد لا نرى فيها نشر من هذا اللون «فى أوقات الفراغ» قصصًا بالمعنى المعروف للأقصوصة وإن كنا نجد فى قصة «خالد الشيخ الذى هجر المدينة ليجد فى الصحراء ملاذًا وسلوى بعد وفاة زوجه ولتكون له فيها واحة يهجع إليها بعد حياة مترعة بالمسرة يستجلى مابعد الحياة من مصير الأحياء، وقد تبعه خادمه الكهل «لأنه كان موقنا أنه لن يجد أسيادًا أقل منهم كلفة، كما أنه كان من العجز والكسل على أعظم جانب» وابنته عائشة وخادمتها «باترا» الفتاة الرومية ذات الحادية والعشرين «لدنة القد، بارزة النهد، عالية العنق، يونانية الأنف، تنم عيناها الزرقاوان عن رقة وحنان يسبيان، وعائشة فى مثل سنها تفيض رقة وشبابًا وعطفًا ذات قوام ممشوق وجسم خصب» وكم تركت وراءها من ذابت نفسه حسرة يوم أعلنت عزمها على اتباع أبيها وهجر المدن ومن فيها، ويعيش خالد فى واحته ، وكم جهدت عائشة أن تعرف سر أبيها وهجرته وتأملاته فى هذا الكون الساكن، يثوب إلى «كتبه الداعية إلى الزهد المنادية بدناوة الدنيا وباطل زخرفها» وقد حجبها عن الفتاتين وكأنه يرى ألا تضنيان بزهده، فإذا رآهما تلحان فى معرفتها لا يمنعها عنهما و « ستجدانها جميعًا كتبًا قديمة جادت بها خيالات المتكلمين وأبحاث المفكرين فى الحياة المستقبلة»

حتى إذا واتته ساعة الموت يمضى نحوها سعيدًا، فقد رأى ليلته، وفى تلك السنة التى طافت به بعد أرق ليله أنه قد جلس «إلى أمك وإلى أم باترا، ما أحلاهما فى ثياب الآخرة، خلع عليهما شباب ذلك العالم المنير جمالاً ليس يعدله جمال، وهل فى الآخرة غير الشباب وجماله؟ وهل يفنى الشباب على هذه الأرض إلا ليتجدد هناك. هذا مارأيته معهما رأى العين، فأما هذه الكتب ومافيها فأوهام من لا يعرف من الحقيقة شيئًا».

ودفن خالد «وهو لايزال إلى اليوم فى واحته يزوره الصالحون، فأما الفتاتان فعادتا بعد ذلك إلى القاهرة وإلى الاسكندرية تضحكان وتطربان، وإذا جن الليل تهيمان، وطلقتا الكتب على أمل أن تلهما الإيمان ساعة الموت فيضىء النور وجهيهما وتموتان قديستين».

وكانت تلك الأقصوصة الفريدة من أقاصيص هيكل التى تفوح بعبق الفلسفة وروح التصوف والإيمان الواثق برحمة الله، وقد نرى فيها روح (الخيام) وقد نرى فيها لمحة مما صوره (أناتول فرانس) فى (تاييس) حيث يصطرع زهد الحياة بالإقبال عليها، وقد نرى فيها سعادة الرهبان فى أديرتهم الضاربة فى أعماق الصحراء، أو زهد المتصوفة فى عالم الإسلام، وقد نرى فيها صورة هيكل فى سعيه وراء القوى التى تحكم الإرادة الإنسانية أهى مجبرة أم رهن الاختيار، فكثيراً مانلمح روحه القدرية فى كل ما يذكر من ظروف حياته «فالخيرة - كما كان يقول دائمًا - فيما اختار الله».

وتجرى قصصه وأقاصيصه بعد ذلك على ما تندّ به الحيـاة من واقع يفوق الخيال أحياناً، وإن كنا نراها جميعًا مما يقع فى دائرة المجتمع الذى يعايشه.

وقد كتب هيكل «انتقام من الجمود» كما يكتب عن «تذكارات الطفولة» لا تأخذ شكل الأقصوصة وإن كانت تدور حولها وتأخذ بملامحها، ثم يكتب «حكم الهوى» و «الشيخ حسن» وينشرهما فى الهلال عام ١٩٢٦، ثم يعيد نشرهما فى «ثورة الأدب» صورة محبوكة من أدب القصص الرائع.

ونأى الدكتور هيكل عن هذا الميدان - ميدان القصةوالأقصوصة - كما يسميها ولم يكن أقرانه قد ولجوا الميدان بعد، وقد راد لهم الطريق، نأى عنه لزمن طويل امتد قرابة ربع قرن، ليعود إليه بقصة «هكذا خلقت» وبعدد من الأقاصيص، تقوم على واقع حقيقى فى حبكة روائية وخيال حلو لا يجنى على واقعها، كما اختار منذ البداية، ولعل إيمانه بالواقع هو الذى حال بينه وبين أن يضع أسماء لأبطال قصته «هكذا خلقت» على عكس ماكان منه فى زينب، حين اختار من الأسماء مايكشف عن حقيقة أبطالها، والواقع فى قصصه، إطار لتفسير النزعات الإنسانية، وحين يصف الواقع يضفى عليه رقة وطلاوة فى حبكة روائية واتساق متكامل.

والقصة - كما يراها، نتاج هذا العصر - عصرنا الحديث - إن كان لها جذور فى الماضى البعيد فإنها لم تأخذ سمتها الحاضر، وإطارها

الفنى الجديد، وغلبتها على غيرها من فنون الأدب إلا فى القرنين الأخيرين، حين أخذت تزيح أدب الرسائل عن مكانه لتحتله فلا تنزاح عنه، ويرد ذلك إلى ولع الإنسانية بالقصص منذ نشأت «وقد كانت القصة- كما يقول- من أول الصور للفن الأدبى ظهورًا»

ومع ولع الدكتور هيكل بالقصة والأقصوصة وريادته لهما فقد كان حريصًا على مكانته كرجل عام، فلما كتب «زينب» وقد فرغ منها عام ١٩١١ «وكنت فخورًا بها حين كتابتها وبعد إتمامها معتقداً أنى فتحت بها فى الأدب المصرى فتحا جديدًا.... فلما عدت إلى مصر فى منتصف عام ١٩١٢، ثم لما بدأت أشتغل بالمحاماة فى الشهر الأخير من تلك السنة، بدأت أتردد فى النشر، وكنت كلما مضت الشهور فى عملى الجديد ازددت ترددًا خشية ماقد تجنى صفة الكاتب القصصى على اسم المحامى» فلما قام بنشرها عام ١٩١٤ بعد ثلاث سنوات من كتابتها اكتفى «بوضع كلمتى مصرى فلاح- بديلًا من اسمى» ولم ينشرها باسمه إلّا بعد ذلك بسنوات، وقد نسبها الناس إليه «حتى إذا رأيت الأستاذ محمد كريم يطلب إلى إخراجها على لوحة السينما، ثم رأيت بعد ذلك عنايته بهذا الإخراج، لم يبق للتردد فى إعادة الطبع محل، كما لم يبق سبب لمحو اسمى من الرواية بعد أن كتبت الصحف وعرف الناس جميعًا أنها لى».

وحين بدأ كتابة قصصه الفرعونية، لم يكن العصر الفرعونى بغيته، وقد بدا له فى وقت ما «أن أجعل من بعض عصور مصر الإسلامية موضع هذه الدراسة، وكانت الحروب الصليبية أشد

ما استهوانى من هذه العصور، لكنى وقفت يومئذ مترددًا، إذ أقدم فأبحث فأوالى البحث فأقدم للجمهور ثمرة بحثى فى صورة من صور الأدب القومى، فإذا حركة عنيفة تهاجمنى من غير أن تزن بالقسط ما إليه قصدت متأثرة فى ذلك بخصومة سياسية أو غير سياسية.... مما لايزال متحكمًا فى أخلاق الشرق من الميل إلى هدم كل رجل ذى قوة وموهبة.... فهذا كاتب قدير ولكنه يختلف معنا فى الرأى السياسى أو ينافسنا فى صفقة من الصفقات، أو يثقل علينا ظله، إذن يجب علينا هدمه أمام الجمهور وإن اعترفنا له فيما بيننا وبين أنفسنا بالتفوق والمقدرة، ومادمنا لا نستطيع أن نهدمه من طريق النقد النزيه فيجب أن نحتال لذلك من كل طريق آخر.... من الخير إذن أن أبحث عن ميدان لايعنى بمهاجمة الباحث فيه أحد، وهو بعد طريف يلذ بحثه ويلذ اتخاذه مادة لأدب قومى شهى الثمرة خصب غاية الخصب، وليكن هذا الميدان ميدان الفراعنة وآلهتهم، ولنطلق لحرية الأدب غاية مداها فى تصوير هؤلاء الآلهة مستمدين أخبارهم من مختلف مصادرها موازنين بينهم وبين آلهة الإغريق الذين ألهموا من فوق الأولمب حضارة أوربا الحاضرة».

وحى الطبيعة وأدب الرحلات:

استجاب الدكتور هيكل لمشاعره وأحاسيسه حين كتب «زينب» فلما أراد أن يتخذ لنفسه نهجًا ظنه أداة لخلق أدب قومى راح يلتمسه فى تاريخ الفراعنة لم يحقق ماقصد إليه، حتى رأى نفسه يخوض ميدانًا

جديدًا لا تدفعه الرغبة فى اقتحامه، ولعله لم يفكر فيه، إلا ما يعتوره من أحاسيس ومشاعر يحب أن يعبر عنها بعد أن ملكت عليه خواطره وامتلأ بها وجدانه، فالكاتب أو الفنان ماأن ينفعل بموقف أو صورة أو رؤيا حتى ينزع إلى التعبير عنها فى وصف رائع أو صورة معبرة أو نغم ساحر، وماكانت روائع الأدب والفن والموسيقى إلا ثمرة الانفعال الذى يملك على صاحبه كل وجدانه ومشاعره ويملأ أحاسيسه بفيض من الإلهام يعلو إلى ذروة من الخيال لا يحلم به غير فنان كاتبًا أو مصورًا أو شاعرًا أو موسيقارًا. أليس الشعر صنو الموسيقى لا يسمو كلاهما إلى الذروة إلا بصور من الخيال الجامح كأنه نغم من السماء؟ أليس المصور حين يمسك بفرشاته فيجريها فتجرى بكل مايحسه من رؤى الجمال الغامض الأخاذ فلا يحسه ولا يدركه غيره هو المصور الموهوب؟ ألم يقل العرب أن لكل شاعر شيطانًا يوحى إليه؟ ولو عرف العرب غير الشعر من ألوان الفن والأدب الأخرى لقالوا إنها وحى شياطين لأنها تجرى بما لا يجرى به أى إنسان إلا أن يكون شاعرًا أو مصورًا أو مثالاً أو موسيقارًا أو كاتبًا، فما كانت ابتسامة الموناليزا الغامضة، وماكان تمثال فينوس وماكانت البولوتيز لشوبان، وماكان لحن المسرة لبتهوفن، وماكانت رؤى سقراط وحكمة أرسطو. وماكانت مسرحيات شكسبير ونظمه، ولا أشعار شلى والمتنبى وشوقى إلا وحى العبقرية التى توحى إليها السماء بفيض من إلهامها.

وكانت الطبيعة مصدر وحيه وإلهامه فى ميدان جديد راده دون أن يفكر فى اقتحامه وقدر له أن ينفرد به بين أبناء جيله، ولعله قد بقى من بعده مغلقًا أمام أى وافد جديد، ولعله هو الآخر قد خاضه راغمًا على امتشاق قلمه ليصور مشاعره وأحاسيسه التى ثار بها وجدانه حين أحاطته الطبيعة بأكنافها وأغرقته فى جمالها وجلالها فالإلهام لايثور فى وجدان أولئك الملهمين إلا وحملهم على الجهر به كأنه نغم جياش فى لهاة مغن لايُسمع مالم يشد به صاحبه، وقدر له أن ينفرد بوصفها بين أبناء جيله حين أحاطته بأكنافها وأغرقته فى جمالها وجلالها. وكان «عشرة أيام فى السودان» و «ولدى» ثمرة هذا الإغراق فى كنف الطبيعة الباهر حين قدر له أن يفرغ لها ويغرق فيها، وإن كنا نرى فيما كتب غيرهما هذا الإغراق فى الطبيعة حين تقتحم بصره ومشاعره، نراه فى «زينب» وهو يصف ليالى الصيف الساحرة «تعزى حامدا عن كثير من همه فيخرج والقمر حائر فى لجة السماء، وخياله أشد حيرة فى لجج الماء والتلال تمتد مع العين حتى يضيع النظر فى لجة الليل ولا يجىء منها إلا على القليل، والنجوم منثورة تحيط بالبدر الناحل... والأرض مكشوفة قد كستها شمس الربيع ترسل شعاعها وسط الجو الساكن الهادئ، والسماء زرقاء صافية يلمع على سطحها العظيم النور الممتد على الوجود.... يرقب البدر العاشق وسط السموات»..

ولسنا نقرأ ذلك فى «زينب» وحدها، بل نراه فيما كتب من أقاصيص فرعونية، إذ نقرأ فى قصة «إيزيس» هذا الوصف الرائع،

والصحب يتخطون أبواب سميراميس، فإذا أضواؤها طرحت على الرصيف أمامها، وعلى الطريق بعده ضياء مبهماً، اختلط بضوء القمر السابح فى السماء، ولما تكتمل دائرته، فهو ثلاثة أرباع، تعرج طرفه المشطور فجعل له ذقناً وأنفاً وجبيناً وضياء.. فلما بلغنا الشاطئ ألفينا صفحة النهر صقلها القمر بشعاعه الندى فجعل منه مرآة له وحده.

حتى إذا واتته فرصة الرحيل والتجوال كان أول ما يعلق ببصره صور الطبيعة، ففى سفره بالقطار إلى الأقصر، فلا يرى فى تشابه صور الوادى فى تتابعها أمام النظر محلاً لاستزادة «فإذا أشرف النهار على المغيب، فأبشر بمغرب شمس قد يبلغ بك من الإعجاب حد العبادة.. كان ذلك شأنى بين طهطا وسوهاج، تداركت الشمس إلى المغيب، وقد ارتكز عندها مثلث من السحب ملأ الغرب، وتشرذمت حوافيه فلما تدلت الشمس طوقت حوافيه القريبة منها بسوار من ذهب، ثم ولت إلى مغيبها فلم تك إلا دقائق بعد ذلك حتى سكبت فى السماء وراءها لهباً دامياً، ودماً ملتهباً».

وأتاحت له زيارة قصيرة إلى السودان أن يكتب «عشرة أيام فى السودان، مقتحماً به هذا الميدان من أدب الرحلات، فلا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا علقت بذاكرته، ليرويها فى دقة عجيبة ووصف أخاذ فى صورة أدبية ساحرة، ويغدو هذا الكتاب بعد نيف وستين عاما من نشره وثيقة تاريخية لا معدى لأى مؤرخ من الرجوع إليه، فقد دعى لزيارة السودان لافتتاح خزان سنار، فكان عليه أن يعرض

للعلاقة بين شقى الوادى ولأوضاع السودان وناسه تحت حكم الإنجليز السافر، فضلاً عما يعرض له من رؤى اجتماعية واقتصادية تهم المؤرخ المعاصر.

وفى «ولدى» وكان يزمع أن يصدره بعنوان «خلال أوربا» وأن «أرتب مواده على أنه كتاب سياحة» أما «والذكرى والرحيل وآثارهما هى التى أملت هذا الكتاب... وزوجى هى صاحبة الوحى لخير ما فيه..» فقد «رأت أن يكون الإهداء لولدنا الذى تركنا إلى جوار ربه» وكان هذا الاسم «ولدى» الذى اختاره عنواناً لكتاب من أرق وأجمل ما كتب فى أدب الرحلات، لثلاث سنوات قضى الصيف فيها سائحًا فى أوربا، وفى جولات اختلفت فيها الأمكنة فى المرة عن الأخرى، فيصف من ملامح هذه البقاع، وكيف سار إليها وتنقل فى أرجائها، ما أمها من قبل وعاش فيها كباريس، وماذهب إليها لأول مرة كبرلين والعهد غير العهد والزمن غير الزمن «أما باريس فتغيرت إذ صارت أكثر حيوية وحركة، أما أنا فتغيرت إلى نقيض ما تغيرت باريس، وما بالك بأربعة عشر عاما هى خير أشطر الحياة تساقط فيها واحد بعد الآخر فى غيب الماضى بين حرب وثورات واضطرابات لم ير العالم، ولم تر مصر لها نظيراً، ما بالك بربيع تطوح به الحياة فى السعير واللهب.. أين الفؤاد الذى كان يهتز لما فى باريس من روعة، ولما فى ضواحى باريس من جمال؟ أين النفس التى كانت لا تعبأ بالقذى التافه لأنها تستطيع الرواء العظيم..».

أما كتابه الثالث فى أدب الرحلات، فهو «فى منزل الوحى» وقد يراه البعض دراسة لمعالم الماضى، فهو أدنى إلى التاريخ منه إلى الرؤى السياحية، ولكن عبق التاريخ يفوح فيه من خلال التنقل والتجوال، فكان من أبدع وأروع وأجمل ما كتب من ادب الرحلات، حيث يتصل جلال الماضى بروعة الحاضر اتصالا يمضى فيه الزمن قلبا بين ما كان وما هو كائن، والتاريخ سفر ملىء بالرؤى والمشاعر حين تلوح فى حاضره آثار ماضيه، وإن أضفى الزمن عليها غلالته من الجلال الساكن، فإنها تفوح بعبق الماضى ليهتز ويربو وتعود إليه ريحه ورباه، إذا ما كشفت عنه مشاعر فنان ملهم، أو أديب عاشق، أو شاعر تلهمه الذكرى جلال الماضى وإكباره، أو مفكر يلمح الخاطرة فيما يرى فتهديه الخاطرة إلى ما يرى للغد.

ومن أدب الرحلات أن يقف الرحالة على وصف المشاهد والصور فلا يعدوها إلى أثرها فى الإحساس والشعور، وهو فى ذلك أشبه بمن يقف فى التاريخ على تدوين الأحداث والوقائع وإثباتها دون أن يتسرب إلى حواشيها أو ينفذ إلى داخلها، فإذا عداها إلى تحليل الظاهرة التاريخية فهذا هو «التأريخ» أو «علم التاريخ» فإذا حمل التاريخ إلى آفاق الوعى الإنسانى وروحه فتلك «فلسفة التاريخ».

فإذا كان للرحالة أن يغوص فيها وراء المشاهد والرؤى مما يرى ويشاهد فقد انتقل من المشاهدة والوصف إلى تحليل الظاهرة الحضارية وردها إلى أصولها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فإذا كان للمشاهد من التاريخ ما ينم عن ماض بعيد أو قريب، فإن هذا

الماضى له من عبق التاريخ نفحة عطرة أو إلمامة أسى إذا كان لها فى الوجدان ذكرى بعيدة أو قريبة.

وقد جمع الدكتور هيكل فى رحلته إلى منزل الوحى، أو رحلة حجه إلى بيت الله الحرام بين الرؤيا التاريخية والرؤية الماثلة والأثر النفسى فى وصفه للمعالم والمشاهد، ما كان فى «منزل الوحى» فتحًا جديدًا فى أدب الرحلات، يبدؤه كرحالة يقص فيها عزمه على «الرحلة إلى الحجاز حاجا» وما ساوره من مشقة الرحيل ومخاوف الطريق حين بدت نذر الحرب فى البحر الأحمر من عدوان إيطاليا على الحبشة، ولم يكن من قبل يخشى سفرًا أو رحيلاً» أو بلغ من تقدم السن بى أن أضعف عزمى، أم أن الأولاد مجبنة لى اليوم، ولم تكن لى مجبنة يومئذ «أم أن إغراء الشباب بالمغامرة الرخيصة ليس فى شىء من حكمة الكهُولة وأناتها فى تدبرها الأمور وتقديرها» ليرجع ترددى من خوف الحرب فى البحر الأحمر إلى أى من هذه الأسباب، أو إليها جميعًا، فأنا ملوم فيه، فما كان لنفسى أن تموت إلا بإذن الله، وكل نفس ذائقة الموت كتابًا مؤجلاً، وقد رأيت الموت بعينى غير مرة، وها أنذا مع ذلك أضرب فى الحياة وما أزال أجاهدها، سقطت من أعلا دارنا بالريف فى سنة ١٩٠١، فلولا قدرٍ عفا عنى لكنت اليوم فى جوار الله، ومرضت فى سنة ١٩٢٤ مرضًا خيف منه على حياتى، وصدمتنى سيارة، فى سنة ١٩٢٨ صدمة قضى مثلها على حياة كثيرين غيرى، وانقلبت بى السيارة فى سنة ١٩٣٢ فلم يؤذنى انقلابها، وتصادمت ومعى أولادى فى سنة ١٩٣٥

تصادمًا أزعجنا ولم ينلنا بأذى، ودون هذا وما إليه يودى بالحياة إذا حم الأجل... »

وفى روايته لوقائع رحلاته ومشاهدها، سواء فى «عشرة أيام فى السودان» أم فى «ولدى» أو «منزل الوحى» لا ينفك يحدثك عن كوامن نفسه ومشاعره وما تلهمه المشاهد والأحداث من خواطر وأفكار يرويها وينقلها للقارئ فى دقة بارعة لا تفوت منها همسة نفس، أو أثر مشاهد، أو واقعة من وقائع الرحلة مهما قلت أو صغرت، وكان له من صدق الرؤيا وواقع الرؤية وقوة الذاكرة الواعية ما يلم بكل صغيرة وكبيرة فلا يفوته منها حدث أو واقعة أو رؤية وصفا ورأيا أو حتى تعليقًا مؤيدًا أو ناقدًا حتى ليلفت نظره فى لندن «سير العربات إلى يسار الطريق، وهى فى غير إنجلترا تسير إلى يمينه، ويلفت النظر كذلك أن رجال البوليس كلهم طوال أقوياء يقظون تلمح على وجوههم سمو قدرهم لواجبهم، وترى فيهم حقيقة ما يردده الإنجليز من أن الطريق ملك البوليس هو الذى يحمى نظامه ويحمى القانون فيه».

ولا يفوته أن يحدثنا عن رفقة الطريق، فهذا شيخ فى قطار السهم الذهبى من لندن إلى دوفر فى طريقه عبر المانش إلى فرنسا «تحدث إلينا طويلا، فكان حديثه شهيًا يدعو إلى الإقبال عليه كما يستغرق النظر تحديقه إلى الوجه الجميل الساحر، سنه أربع وسبعون سنة.. وكان يحدثنا وهو يتناول الطعام ويتناول معه قدحين من الويسكى، ولما سأل الغلام عن حسابه ودفع له اثنى عشر شلنًا قال:

لو علمت زوجى أنى دفعت فى أكلة واحدة مائة فرنك لغاضبتنى إن لم أشتر لها بهذا المبلغ قبعة تعجبها وأن أنفقته لنفسى، لذلك يحسن أن يخفى الرجل على زوجه ما يدعو لخصومة أو مغاضبة»..

وهكذا تمضى مع الدكتور هيكل فى رحلاته منذ أن يبدأها فيقص عليك كل شىء حتى لتحس أنك لا تتركه فيها إلا حين يذهب إلى فراش نومه ويغلق جفنيه - كما يقول - على كرى الليل.

وتبقى الصورة فى خاطره بارزة حتى يصبها على الورق، فتبدو مجسمة أمام ناظريك، وكأنك تشاهدها معه وترى ما يراه وكأنك إلى جواره، وهو يصف لك مغرب شمس من نافذة القطار الذى يحمله من بودابست إلى فينا، بعد نهار عاصف، بدأت سحبه «تنضم للغمام وتتراكم ثم تتراكم حتى أذهبت الأمل الربيعى الضاحك، وأعادت إلى الخضرة الباسمة قتامًا ورعدة، وأعان السحاب ريح بدت بليلة رقيقة ثم تزايدت حتى صارت صرصرًا عاتية، وتلاطمت السحب فإذا البرق يخطف الأبصار وإذا الرعد تصطك له المسامع، ثم إذا المطر ينهمر انهمار السيل، فلا يمنع انهماره خطف البرق ولا قصف الرعد ولا تزايد دكنة السحاب وقتام الجو.. وتضرب أمواه المطر زجاج النوافذ كأنها أسواط من نقمة السماء، وننظر نحن إلى ذلك مبتهجين به ابتهاجنا بالشمس والضوء والهواء الرقيق من قبل، واجدين فيها جديدًا تطرب له النفس طربها لكل جديد لا يصيبها منه مكروه.. فلما آن لهذه الثورة أن تهدأ، وللسماء أن تمسك ماءها، وللسحب أن

يتوارى بعضها بعدما أضناه الانهمار، كنا قبيل الغروب وعلى ساعة من فينا».

«وحانت منا التفاتة إلى ناحية الغرب، فإذا صيحة تدفعها الغريزة إعجابًا وإكبارًا، وإذا أنفاسنا تمسكها الصدور أمام جلال المغرب الرائع، بقيت فى هذا الجانب من السماء سحب منثورة اختبأ وراءها قرص الشمس ليرسل فى أثير الهواء المشبع بذرات الماء من أشعته الدامية ما تخشع أمامه القلوب تقديسًا لجماله الباهر، وتحيط أطواق من عسجد ومن لجين بالسحب البعيدة عن القرص. فتجعل منها فى لجة السماء بحيرات سبكت شواطئها من فضة ومن ذهب، ثم إذا هذه الأطواق تستحيل فى مختلف ألوان قوس قزح التى حللتها كرات الماء الباقية معلقة فى الهواء. ثم إذا الغرب كله التهب بنار وبنور يسرع تتابع ألوانه، كأنما تتلاعب بها بلورات الماء التى انعكست عليها أشعة ضياء الشمس المسرعة إلى الانحدار، وازدادت حمرة السماء كأنما اختلط فيه باللهيب دم جعل ينهمر انهمار المطر من قبل، أثرًا لمعركة حامية أعلنها الملائكة والشياطين بين السحاب والسماء، وكلما توالت هذه الصور الأخاذة باللب والفؤاد ازددنا تقديسًا للطبيعة المحسنة الجزاء بعد غضبها وثورتها.. وشدت أنظارنا إلى السماء أثناء هذه الحالات جميعًا ونحن ذهول شردت ألبابنا فى عبادة هذا الإبداع.. وذكرت خلال الدقائق الباقية على دخول القطار المحطة مغارب الشمس التى بقيت مرتسمة صورتها فى نفسى فصارت بذلك جزءًا من حياتى ذكرت مغرب شمس سنة ١٩٢١ وأنا على

بحيرة ليمان صحبها مطلع قمر ما رأيت وما أحسبنى أرى مثله شعرًا وجمالاً، وذكرت مغرب شمس شهدته فى الريفييرا، ووراء جبال «ڤل فرانس» وآثاره الفاتنة على البحر المتوسط، وذكرت مغارب شمس مصر الساحرة، ومن بينها ما شهدت بين طهطا وسوهاج سنة ١٩٢٢، لكنى لم أذكر فى هذه كلها ولا فى غيرها واحدًا فى روعة هذا المغيب الباقية آثاره الذاهبة تتبدى بين عمائر عاصمة النمسا.. أم هى كانت ما كان هذا المغيب روعة وجلالا؟.. لا أدرى ولكنى أذكر مغيب الشمس بين بودابست وفينا.. وأحسبنى ما رأيت مثله مغيب شمس ولا مشرقها، ولا مطلع قمر ولا مغيبه».

ولا يفوته من ذلك ما يفوت غيره، ففى «عشرة أيام فى السودان» بعيدًا عما يهمه من رحلته إلى السودان وعن شئون السودان ومشاغله. خبر تلك الجماعة من الأمريكيين.. جاءوا إلى حلفا للنزهة.. والأمريكيون شعب جديد حقًا، فالأمريكى لا يشعر أنه مقيد بما يشعر أهل العالم القديم أنهم مقيدون به من عادات ومن قواعد للسلوك فى حركاتهم وفى تحياتهم وفى ملابسهم، ولقد لفتنا منظر شاب يسير فى سراويل بيضاء وينتعل حذاء ثقيلاً غاية الثقل ويرتدى فوق أكتافه جاكتة وصديرية عجيب شكلهما، ولم يكن الإنكليز[1] ممن معنا أقل منا دهشة لهذا المنظر، وكان هذا الشاب

---

(١) كانت ألفاظ الإنكليز ولندرة وإنكلترا هى السائدة حينذاك بدل التى سادت اليوم ولعلها من آثار الترجمة الشامية اللبنانية التى ما زالت تترجم الجيم غينا فنقول الجنرال ديغول بدل ديجول والكنغو بدل الكونجو وشنغهاى بدل شنجهاى، وشيكاغو بدل شيكاجو مما لا يزال مع خطأ النطق سائدا.

يسير مع سيدة نصف ورجل متقدم إلى الكهولة، عرفت فيها بعد أنهما أبواه، وأن هذا الكهل أستاذ بإحدى الجامعات الأمريكية، واتصل بيني وبين هذه الأسرة حديث أبدى الشاب خلاله من العجب للإنكليز والأوربيين ومحافظتهم مثلما أبدوا من العجب لاستخفافه بالتقاليد..».

أدب الرحلات ووحي التاريخ:

فإذا ألم بمنزل الوحي ومنتجع الرسالة ومبعث النبوة بعد أن طاب له خاطر الحج، ومنذ أن «جاء أهلي من الريف يهدون إلينا تحية.. وكلهم يطلبون إلى ما طلبه قبلهم كثيرون غيرهم أن أقرأ لهم الفاتحة عند بيت الله، وعند قبر رسوله صلى الله عليه وسلم، وأن أدعو لهم الدعوات الصالحات..» يبدأ فى قصة رحلته، كما بدأ من قبل «عشرة أيام فى السودان» وكما بدأ «ولدى» ويمضى فى روايته مع كل بادرة أو نادرة أو مشهد أو حادث فلا يفوته من دقائقها شيء.

ولكنه «فى منزل الوحى» يتنسم عبق الماضى وريحه، وتتراءى له صور الماضى البعيد مترعة بتلك «المعانى السامية» من تعاليم النبى العربى وتعاليم الإسلام وإن كان لا يفوته أن يمضى مع الرحلة من بدايتها إلى نهايتها – كعادته – لا يغفل أى حدث من أحداثها أو مشهد من مشاهدها، ولا ينسى خاطرًا تموج به الذكرى إليه: «وتخيلت أمامى النبى العربى يؤدى حجة الوداع على رأس مائة ألف أو يزيدون فطأطأت رأسى لهذا المشهد إكبارًا وإجلالاً» ويصل بين

الحاضر الذى يسعى إليه، والذى رأيت «نفسى مقبلاً عليه فى ألوف اجتمعوا من أقاصى الأرض لا من الجزيرة العربية وحدها» وهذا الماضى الذى اجتمع فيه «الألوف الذين اتبعوا محمدا منذ نيف وأربعين وثلاثمائة وألف سنة خلت، فازدادت نفسى لليوم القريب الذى أقف فيه هذا الموقف مهابة وإكبارًا».

ولا نراه يسكت على باطل يراه، فإذا سكت عنه فى جدل لا جدوى منه فإنه لا يسكت عنه إذا ما خلا إلى قلمه حيث لا جدل ولا مراء، فحين جاء الأمير محمد عبد المنعم ليودع عمته «الأميرة خديجة حليم شقيقة عباس حلمى خديو مصر السابق وأرملة الأمير سعيد حليم الصدر الأعظم فى تركيا فى أخريات حكم السلطان الخليفة محمد رشاد، ودار الحديث حول تصور الأمراء للحج وما يلتمسون أثناءه من مغفرة الله لهم، وإنا لفى هذا الحديث إذ أقبل علينا الأمير.. ابن الخديو عباس حلمى وولى عهد مصر السابق، ويعرض الحديث لفيلم «وداد» السينمائى فيقول: «إنما ألاحظ على هذا الشريط صورة المسجد فيه والنداء للأذان به».

وصمت الحاضرون، ومضى الأمير يقول:

«صحيح أن المناسبة التى ألقى فيها الأذان من فوق مئذنة المسجد حسنة جدًا، فقد كان الناس يختصمون، فلما سمعوا الأذان انصرفوا عن الخصومة.. لكن السينما تنتقل من بلد إلى بلد ولا عجب أن يعرض هذا الشريط فى أوربا، والغربيون يستهزئون

حين يسمعون كلام الله، وحين يسمعون القرآن، ومن الواجب علينا ألا نفرض ما نقدسه إلى استهزاء الغير به».

«ودار حول رأى الأمير حوار دل على أن كثرة الحاضرين لا تؤيده، وإن اختلطت عبارات هذا الحوار بكثير من ألفاظ التبجيل والاحترام.. ولم أشترك فى حوار الذين حاوروا الأمير، ولم أرد أن أذكر ما ورد فى القرآن عن الذين يستهزئون حين يسمعون كلام الله وأن الله يستهزئ بهم ويردهم فى طغيانهم يعمهون.. على أنى لم أعجب لهذا الرأى من شاب نشأ فى أسرة مالكة، وكان يومًا ولى العهد لعرش دولة لها مكانتها فى العالم الإسلامى كله، فهؤلاء يبالغون فى الحرص على تقديس ما يعتقدونه مقدسًا ليبالغ غيرهم فى تقديس الدين وما يصدر عنه، وهم ليؤمنون بصوت الملك وأنه من صوت الله، فإذا حجّوا ليستغفروا أو يطهروا، كفاهم أن يرتقوا إلى عرفات ولهم فى سعة ما لهم من أسباب الفدية ما يحسبون أنهم يفتدون به كل الأوزار والخطايا، وإن منهم من لا يرضى أن يحرم يوم عرفة لأنه لا يؤمن بالمساواة، فهو يريد أن يفتدى منها كأنما يفتدى من عذاب يوم عظيم».

ويعجب الدكتور هيكل «أن لم يذكر أحد من الذين جادلوا الأمير ما سمعته غير مرة من أن الأذان بصوت حسن كان مما حمل كثيرين من غير المسلمين على أن يدينوا بالإسلام.. وغير المسلمين يسمعون إلى آى الذكر الحكيم حين يقصد من ترتيله إلى حسن فهمه بإجلال وإكبار كإجلال المسلمين وإكبارهم .

ويكتب هذا الكلام فى «منزل الوحى» وقد صدر فى طبعته الأولى عام ١٩٣٧ وللملكية وللأسرة المالكة فى مصر ناب وظفر.

ويمضي فى وصفه لكل ما تقع عليه عينه ويدون كل ما يسمع من حديث أو رأى، وما يقع من أحداث فيقص ما كان من جنوح الباخرة كوثر على شعب «يدعوه أهل جدة - شعب السامرى - وتثبته الخرائط الأوربية باسم - شعب سانت مارى - ولم تدر بخاطرى ريبة منذ حدثت الهزة فى أننا اصطدمنا به.. فلما أدركنا جسامة الخطر على حقيقتها ازددنا شكرًا لله أن وقفت الباخرة حيث هى، يمسكها الشعب وإن مالت إلى جانبها بعض الميل، وامتلأت نفوسنا بالشكر وفاض عنها، فترجمنا عن فيضه بالإمعان فى التلبية مكررة قوية صادرة من قلوب زادها تصور الخطر إخلاصًا وإيمانًا، إن صح أن تزداد قلوب قصدت إلى بيت الله ملبية نداء ربها إخلاصًا وإيمانًا».

ويمضى فى وصف رحلة الإيمان وكيف بدأ مراسم الحج.. «وها أنذا أتقدم نحو البيت الذى أقام إبراهيم وإسماعيل قواعده، والذى وضع محمد قبل مبعثه حجره الأسود مكانه، والذى طاف به الأنبياء، وطاف به الملوك والأمراء على كرّ الدهور وهم فى مثل ما أنا فيه من خشوع ومهابة وهم سواسية أمام الله مع من يرعونهم من عباد الله، وقلوبهم تفيض ندمًا وتوبة واستغفارًا، والذى طاف به ملايين المسلمين، وربما كان أشدهم فقرًا مَن هو أكرم عند الله من هؤلاء الملوك والأمراء لأنه أتقى منهم وأعظم بالله إيمانًا، ها أنذا أتقدم اليوم

نحو البيت أطوف به طواف العمرة وقد اجتمع هذا الماضى كله المهابة والجلال أمام بصيرتى، فزادنى شعورًا بما بينى وبين الذين أقاموا قواعد البيت والذين تطوفوا به من صلة يمحى أمامها الزمان والمكان وتتبدى من خلالها وحدة الكون التى لا تعرف الزمان ولا المكان».

ويتصل الماضى والحاضر فى «منزل الوحى» اتصالاً يغيب فيه الزمان والمكان إلا من جلال التاريخ، فهذه منى ينحدر إليها الحجيج من عرفات عند المشعر الحرام «ليقيموا بها أيام النحر ثلاثة أو أربعة يرمون أثناءها الجمرات» ويشده التاريخ إلى محرابه فيسمى أيام النحر فى منى «أيام التشريق» كما كان العرب يسمونها قبل الإسلام، ولم يمح الإسلام هذا الاسم وإن غلب عليه أيام النحر، وقد كانت فيها بيعتا العقبة الأولى والثانية «علم مضىء فى تاريخ الإسلام كغزوة بدر الكبرى تمامًا، وكتب السيرة تجمع على أنهما، أو كبراهما وقعتا أيام التشريق فإنى أوثر أن أحتفظ بهذا الاسم وأن أطلقه على أيام النحر فى منى، وأن أجعله لذلك عنوان هذا الفصل من الكتاب.

«قلّ من المسلمين من يذكر هاتين البيعتين حين يلقى الجمرات على صخرة العقبة، أما أنا فوقفت عند العقبة وعدت إليها من بعد كما عدت إلى مسجد البيعة ووقفت عنده طويلاً باحثًا عن الشعب الذى احتمى الرسول والمسلمون من أهل المدينة به حين بايعوه، وإن من الواجب أن يذكر المسلمون يوم إفاضتهم وحين وقوفهم أمام جمرة العقبة هذا الموقف الفذ فى التاريخ من مواقف النبى العربى،

فهو من المواقف التى وجهت التاريخ وجهة جديدة، والتى وجهت الإنسانية كلها إلى النور والهدى».

ومن هذا الماضى البعيد يقفز إلى الحاضر، حين يذهب مع جماعة من صحبه «نحضر التشريفة للملك وولديه.. ويمر الناس به ويحيونه فيدعو ذوى المكانة منهم إلى الجلوس فى المقاعد المجاورة له، ولم يرض أول ملك على الحجاز عن تقبيل أحد يده، لما فى ذلك من مخالفة عقيدته الوهابية، ومن مخالفة قواعد الإباء والشمم العربية، على أن أهل الحجاز أصروا على تقبيل هذه اليد، فصار فى السنوات الأخيرة لا يحول بينهم وبينها، أما النجديون فلا يزالون كما كانوا يهزون يد عاهلهم، ويسمونه باسمه ويحيونه بتحية الإسلام فيقول له أحدهم: كيف حالك يا عبد العزيز؟ إذا أرادوا المبالغة فى التحية أطلقوا عليه - طويل العمر - ويمر المهنئون بالملك، ويشرب المقربون قهوته النجدية، ويلقى بعضهم أمامه القصائد والخطب، كل ذلك فى بساطة بدوية تطأطئ أمامها الديمقراطية إكبارًا وإجلالاً».

ويمضى مع خطى الرسول بمكة من غار حراء إلى غار ثور وإلى الطائف وطريقها ومعالمها وكيف ردّه أصحابها «كسير الخاطر» وإذا الأبناء سبقته إلى مكة «فإذا قريش تستقبله بالسخرية وتناله وأصحابه من الأذى بأكثر مما نالته ونالتهم من قبل» وفى مسيرته يصف معالم الحاضر وما بقى من الماضى بعض معالمه وما جد فى الحاضر ليكون شاهدًا عليه، وتستهويه عكاظ فيأتى على ماضيها وإن لم يعثر لها على مكان بين مكة والطائف يطمئن إلى موقعها فيه.

وما أن يطوف بالبيت العتيق طواف الوداع حتى يعد العدة «للخروج من مكة إلى المدينة وأودع بعد البيت أصدقاء كانوا أثناء مقامى عندهم خير ما أرجو من كرم ضيافة وحسن لقيا ودوام تأهيل وترحيب، كما كان الكثيرون منهم نعم العون لى فى بحوثى «ويمضى فى الطريق إلى المدينة مارًّا بجدّة» وهذه الشميس والحديبية حيث كانت بيعة الرضوان وحيث عقد الرسول أول عهد له مع قريش..... ولم يثننى ماقرأته.... من أن مسجد الشجرة والحديبية لا يعرفان الآن، فلو أن مثل هذا القول صدّنى عن الوقوف عند أثر مأثور لولّيت وجهى عن الآثار المأثورة جميعًا فيما خلا الحرم وحراء وثورا.... والمشهور أن هذا المسجد يقوم فى الموضع الذى كانت تقوم فيه شجرة الرضوان، وهى الشجرة التى نزل فيها قوله تعالى:

﴿لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يُبَايعُونَك تَحْت الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مافى قُلوبِهم فَأَنْزَلَ السَّكِينَة عليهم وأثابهم فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

وهذا الطريق من مكة إلى المدينة ماأحفله بالذكريات «لقد رأى النبى العربى طفلا ورآه صبيا ورآه شابا، ورآه نبيا، ورآه مجاهدًا، ورآه حاجًّا بيت الله مستغفرًا إياه ضارعًا إليه... وأنا أسير اليوم فيه ويسير عشرات الألوف من المسلمين فيه كل عام، وقل من يذكر منا مايحفل به، أو يذكر هذه الحوادث من أيام النبى وفى كل واحدة منها عبرة، وفى كل واحدة منها مذّكر».

ويلم بالمدينة بعد ست وأربعين ساعة منذ غادر مكة، لم ينله منها

رهق أو تعب، وكم هو «عَجَبٌ أمر السفر فى هذه البلاد الإسلامية المقدسة... بلغنا جدة أمسية الاثنين ولم أنم بها خمس ساعات، وقضينا طيلة يوم الثلاثاء بين جدة وآبار بنى حصان، ولم نقض بأوتيل آبار بنى حصان – سوى ثلاث ساعات، وكان المبيت بالعراء خيراً منها، وها نحن أولاء نبلغ المدينة والعصر وشيك أن يؤذن أو لعله قد أذن المؤذن به، مع ذلك أرانى جم النشاط أودّ لو أخرج لتوى لزيارة المسجد النبوى فأؤدى بذلك تحية المسلم إلى مقام الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام».

ويزور ويصلى ويطوف بمعالم المدينة ويسعى إلى ظاهرها. ولا يفوته أن يتقصى كل مارأى وأن يقرن حاضره إلى ماضيه، ويقلب صفحات التاريخ ويهيم بالرؤية ليصف كل مايرى، ويشجى بالذكر أمام قبر حمزة «فأنت أمام عرين الأسد وهذه الجبال والأودية مما حولك كلها مجاله، فيها كان يصول ويجول» ويلم بتاريخه، ويدعو ربه أن يهبه من فضله بعض ما وهب حمزة «هب لنا الإيثار على أنفسنا وأن نحب بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات إخواننا» ولشدّ ماتبعث وقفته أمام الحجرة النبوية إلى نفسه « آى الحكمة ومعانى الجلال» ويمضى مع تاريخها فى كل ماكتب عنها، ولايبرح المدينة حتى يقف أمامها وقفة الوداع «وبقيت مكانى مأخوذاً يهتز قلبى وتضطرب مشاعرى ويضىء بصيرتى نور أحسّه فى أعماق نفسى فأرانى أسمو فوق ماألفت، وأذكر موقفى من حراء ويتمثل أمامى كرّة أخرى يوم الوحى الأول فى سناه وبهائه، ثم أذكر موقفى

من غار ثور وتتمثل لى هجرة النبى إلى هذه المدينة التى أقف الآن بها أمام قبره، وتمثلت أمامى غزواته وحياته وأصحابه، كأنما تتتابع هذه المواقف جميعًا أمام باصرتى مليئة بالحياة مضيئة بالإيمان، وبما يدفع الإيمان إليه من جهاد فى سبيله، وانقضت فترة آن للنفس فيها أن تهدأ، فانسحبت من موقفى أمام الحجرة فى إكبار وإجلال، وسرت خافض الرأس حتى بلغت منبر رسول الله فى الروضة، فصليت ركعتين، واستغفرت الله لى وللمؤمنين وانصرفت من المسجد راضيًا عن نفسى طامعًا فى مغفرة الغفور الرحيم ذنبى، هو غافر الذنب قابل التوب شديد العقاب».

ويؤدى واجب الشكر لمن كانوا فى صحبته، ويلم ببدر، ويذكر العريش وقد قام مكانه مسجد «يسمى مسجد العريش» وليس لموقعة واترلو ولا لأى موقعة غيرها بعض مالغزوة بدر من أثر فى حياة الإنسانية، ويمضى به الطريق إلى ينبع حيث رست الباخرة زمزم لتحمله فى «أوبة الرضا».

وإنا لنجد فى «منزل الوحى» لونًا جديدًا من أدب الرحلات لا لأنه يلم بالرحلة لأكرم زيارة على المسلمين ولأقدس الأمكنة. ولكن لجولة رائعة اتصل فيها الزمن ماضيه بحاضره فى صورة رائعة شيقة مليئة بالفكر كما هى مليئة بصدق الرؤيا وإلهام التاريخ والبحث عن الحقيقة فى ركام الماضى المبعثر إلى نفحة صوفية من الإيمان الذى يملأ النفس جمالاً وجلالا ويغمرها بالنور الإلهى مع إكبار لهذا الماضى الذى عم الإنسانية بره وأسى لحاضر ذوى فيه كل

هذا الجلال الذى غلف التاريخ بملحمة من المجد والخير والجلال والسمو الرفيع عزّ أن يكون له ضريب، وهو لون جديد من أدب الرحلات تفرد به الدكتور هيكل.

وقد نرى «فى منزل الوحى» آخر جولاته فى ميدان الأدب، وإن كنا نعدّه من ناحية أخرى ملحمة فريدة من البحث العلمى اقترنت الرؤية بالتاريخ، وماأدب الرحلات بعد زمن إلاّ مصدر من مصادر التاريخ فيما ترك من وصف لمحافل مضى عليها الزمن وغيرتها الأحداث إلى حاضر لا يلبث بدوره أن يصبح ماضيًا وذكرى من ذكرياته.

من الأدب إلى الفكر

ولنترك هذا الميدان الذى خاضه الدكتور هيكل «ميدان الأدب» وقد راده من كافة مناحيه، قصاصًا وناقدًا ووصّافًا لترحاله ورحلاته، وقد هجره إلى ميدان أوسع وأكثر رحابة، لعله كان أكثر قربًا إلى نفسه منذ البداية هو ميدان الفكر، ولم يعد إلى ميدان الأدب إلا بعد نيف وستة عشر عاما حين صدر إلى الناس بروايته «هكذا خلقت» وبقصص أخرى - كما ذكرنا من قبل - عكف خلالها على الفكر الإسلامى يصول ويجول فيه مؤرخا ومفكرًا، وليعكف معه على كتابة فكره السياسى من خلال تجربته الفذة فى ميدان السياسة المصرية والدولية فى مذكراته السياسية، وفيما دونه من تقارير عن مؤتمرات الاتحاد البرلمانى الدولى، وعن رياسته لوفد مصر فى الأمم المتحدة، وماكان له من قبل على صفحات الجريدة والسفور والسياسة الأسبوعية وعلى موجات الأثير وفى الندوات الفكرية الدولية مما ينزله مكاناً أثيرًا بين قادة الفكر العالمى المعاصر.

ولم يكن غريباً على الميدان منذ البداية فقد التقى الدكتور هيكل

المفكر والدكتور هيكل الأديب على وفاق منذ نشأته الأولى ومنذ ظهر له أول مقال على صفحات الجريدة وكان عن «تحرير المرأة».

والفكر كما يراه، هو السبيل إلى يقظة الأمم، وماالحركات الفكرية إلّا «يقظة الأمم من ركود تألفه وتستنيم إليه، فتؤدى استنامتها لهذا الركود إلى انتشار العادات الضارة، والعقائد السقيمة، والمفاسد التى تصبح فى حكم العادات والعقائد، والتى تضر بالمجموع القومى ضررًا يشعر به بادئ من بعض الأفراد فينبهون إليه، ثم ينتشر الشعور به فى طوائف الأمة المختلفة، فإذا علت الصيحة بمقاومة هذا الفساد لبّى الشعب هذه الصيحة فكانت اليقظة، وكانت الحركة الفكرية أو التحريرية للقضاء على العادات الضارة والعقائد السقيمة والمفاسد الناشئة عنها. وإن كنا نرى أن الحركات الفكرية قد تتسع لتشمل العالم أجمع فلا تقف على شعب دون الآخر، وإن كان لكل شعب يقظته الفكرية المِغزة به إلى التقدم، والفكر العالمى أوسع مجالاً وأبعد مدى فى تقدم الحضارة الإنسانية وتطورَها على الزمن، وما تاريخ الإنسانية إلّا سلسلة متصلة من تلك الحركات الفكرية التى تهز العاطفة وتورى العقل باليقظة وأول مايتجه إليه المفكر بلده وقومه يمزق عنها سدف الجهل التى رانت على العقل فحجبت عنه المعرفة الصحيحة وأورثته الغفلة والركود.

ولقيت قضية المرأة حينذاك من الدكتور هيكل أعظم نصيب؛ فقد كانت المرأة حبيسة الحجاب الذى ضربه عليها أحقاب من

التخلف الفكرى والسياسى عصف بالحضارة الإسلامية وأسدل على العالم الإسلامى أستارًا من الجهل والشعوذة والخرافة، ابتذلت فيها مكانة المرأة فغدت فى نظر المجموع وعاء للجنس يخفيه ويصونه من نزوات المرأة نفسها ومن خبث الآخرين الذين يشتهونه ويسعون إليه فى خفاء، فحرمت المرأة عاطفة الحب وحرية الاختيار لرفيقها فى رحلة الحياة الطويلة، وحرمت من التعليم لأن التعليم والمعرفة يفتحان عقلها ووجدانها على ما يخشاه المجموع من نزواتها.

وكانت البداية حين ثار قاسم أمين لما كتبه «الدوق داركور» فى كتابه عن المصريين عام ١٨٩٣ فوصمهم بالجمود والتأخر وفساد التربية والتفكير ونعى عليهم حبسهم النساء وتركهم إياهن بعيدات عن العلم وردّ ذلك كله إلى العقيدة الإسلامية التى يدينون بها، فكتب يرد عليه عام ١٨٩٤ بالفرنسية بكتاب دعاه «المصريون» فند فيه مزاعم الدوق وجماعة من الكتاب الآخرين سلكوا مسلكه، أبرز فيه فضائل المصريين وإن اعترف ببعض عيوبهم ولكنه ردّها لا إلى عقيدتهم – كما يزعم الدوق داركور – ولكن إلى توالى الحكومات الفاسدة عليهم.

ويختار قاسم أمين من عيوب قومه ما تخضع له المرأة المصرية من «رق الجهل ومن رق الحجاب» فهما أشد مايعوق المجتمع عن التقدم والنهوض، وقد رأى فى جهل المرأة وحرمانها من التعليم مايجنى على الطفولة ويحول دون التربية السليمة التى تغرس فى الطفل الحرية

والمحبة والتسامح وأداء الواجب وترتفع به عن أدران المادية الوضيعة حين «غفلت التربية المنزلية عن تربية إحساسنا وأهملت تربية قلوبنا فأصبحنا ماديين».

هذه النظرة المادية للأشياء هى بعض ماحمله على تحرير المرأة من وصمة الجنس، وكان قاسم أمين بما اتسم به من شعور مرهف وإحساس دقيق، وبما شهد فى فرنسا من حياة المجتمع وحياة الأسرة، تلك الحياة التى تقوم على تقديس الحرية وتقديس الواجب، قد رأى أن علة المجتمع فى «فقد الحرية عند الرجل والمرأة، والحرية – كما يقول – هى قاعدة ترقى النوع الإنسانى ومعراجه إلى السعادة، لكن فقد الحرية عند المرأة كان أشد خطرًا وأفعل كثيرًا، فلنجاهد أولا لتحرير المرأة» وقد عدّها الرجل وعاء له، ورضيت المرأة بما اختار لها الرجل واستكانت له، «فتهزه وترتسم فى مخيلته» وتستدعى النظر والتفكير امرأة محجوبة تسير فى شارع الدواوين مبرقعة كما يسير آلاف غيرها، ولكن يظهر من هيئتها أنها من عائلة كبيرة، تمشى خطوات مرتبة يهتز معها جسمها مائجا كما تفعل الراقصة على المسرح، وتخفض جفونها بحركة بطيئة وترفعها كذلك وترسل إلى المارة نظرات دعابة ورخاوة واستسلام يجعل مجموعها مهيجًا لحواسهم» – كما يقول الدكتور هيكل فيما كتبه عن قاسم أمين – فيؤيده فيما رآه، ويقول: «هذا هو أثر حىّ أمامه من آثار الحجاب الذى يحاربه، وهذه هى الصورة التى يدعى خصومه أنها مثال ذلك

النظام الذى وضعته العادة محافظة على العفة. أفلا يرى الناس هاته المرأة أمامهم تكذب كل مايزعمون» .

وتقترن هذه الصورة – كما يرى الدكتور هيكل – بصورة أخرى يراها قاسم أمين فى فرنسا فتهتز لها أحاسيسه وعواطفه، ويقول فى روايتها:

«رأيت مدة وجودى فى فرنسا طفلا عمره عشر سنين كان يتفرج بجانبى على فرقة العساكر الفرنساوية وهى عائدة من حرب التونكين، فلما مرّ أمامه حامل العلم وقف هذا الغلام باحترام ورفع قبعته وحيّا العلم وصار يتابعه بنظراته حتى غاب عنه» فأحسست أن الوطن تجسم لهذا الطفل فى العلم الذى مرّ أمامه وأثار عنده جميع الإخساسات التى بعثها فيه ما تربى عليه من حبّه حتى خلته رجلاً كاملاً. أما الرجال والنساء الذين كانوا يشهدون هذا المنظر فقد وصلت بهم قوة الشعور إلى أنهم صاروا يعملون أعمال الأطفال. فكان الكثير من النساء يقبل العساكر ودموع الفرح تسيل على خدودهن وأغلب الرجال كانوا يرقصون ويغنون ويلقون بقبعاتهم فى الطريق، فبِمثل هذه المناظر وما يدور فيها وعنها من الأحاديث أمام الأطفال ينغرس الشعور الوطنى فى نفوسهم ويزهر ويثمر هكذا الحال فى تربية الفضائل الأخرى» .

وكان أول مقال يكتبه الدكتور هيكل فى الجريدة، وأول مقال له فى حياته عن «تحرير المرأة» عام ١٩٠٧، ولما يبلغ العشرين من عمره، وكان كتابا قاسم أمين «تحرير المرأة» و «المرأة الجديدة» قد ظهرا قبيل ذلك بسنوات قلائل، فأقبل على قراءتهما وكانا دون شك من المنابع التى صاغت فكره وأثرت فى تفكيره طوال حياته «فقد اطلعت على كتاب - تحرير المرأة - وعلى ما كتب طعنا عليه، ثم اطلعت على تفنيد قاسم أمين حجج خصومه فى كتابه - المرأة الجديدة - وأعدت قراءة كتابى قاسم أمين، واقتنعت بأن الرجل على حق، وبأن ما يقوله من البديهيات، وعجبت لموقف الذين ناوءوه ووقفوا فى وجهه...».

وحين ذهب إلى فرنسا رأى من حرية المرأة الفرنسية ونشاطها وحياتها الاجتماعية والثقافية وقيامها إلى جانب الرجل تسنده وتسانده فى بناء الأسرة وفى بناء المجتمع ورأى من زميلات الدرس فى السوربون وفى مدرسة العلوم الاجتماعية بباريس ما زاده إيمانا بحرية المرأة وهو ما عبر عنه فى ثنايا قصته «زينب» وإن لم تشغله قضية تحرير المرأة طويلا فسرعان ما نالت المرأة الكثير من حقوقها ولما يمض على دعوة قاسم أمين زمن طويل، حتى ليقول: «ومع أن قاسما لم يمت إلا من عشرين سنة، فلو أنه بعث اليوم ورأى من آثار دعوته هذا التعليم الإجبارى للبنين والبنات، وهذه النهضة النسوية العظيمة فى مختلف جوانب الحياة، وهذه الحرية النسبية التى تتمتع بها المرأة... لترك ميدان المرأة وتحريرها يسير فى طريقه

الطبيعى، ولفكر فى ميدان آخر من ميادين الإصلاح الاجتماعى الخطير الذى تحتاج مصر اليوم إليه أشد الحاجة».

وهذا ما كان من الدكتور هيكل كما لو كان يعنى نفسه حين ذكر ما كان يمكن أن يكون من قاسم أمين لو لم تشغله قضية المرأة عن التفكير فى ميادين أخرى لتقدم مصر، وقد ذهب الدكتور هيكل يرود من ميادين الفكر ما رآه قمينًا بتقدم مصر فى بنائها السياسى والاجتماعى والفكرى الجديد، وإن ترك لنهضة المرأة جانبًا أثيرًا على صفحات السياسة والسياسة الأسبوعية تحررها «الآنسة مى»

والفكر هو ما يخوض فى قضايا العالم والناس سعيًا وراء الحقيقة فى الوجود وفيما وراء الوجود، فهو مشكاة العقل تنير السبيل وتهدى لما يراه المفكر أقوم، وإن اختلف الفكر بين أربابه فالغاية التى تحدوهم واحدة، هى السعى وراء المثل الأعلى لحياة إنسانية رفيعة يسودها الحب والخير والجمال، وهى الكشف عن الخطأ الذى يشوب الصواب ويداريه، وهى الرؤية الفاحصة لمشكلات الحياة والرؤيا الواضحة لأفكار هذا العالم ومحاذيره، وهى البحث عن سرّ هذا الكون ومحاذيره.

والفكر هو السمة البارزة للثقافة والمعرفة الرفيعة فى حضارة العصر، فإذا فاقها فهو فكر متقدم، وإذا تخلف عنها فهو فكر جامد ينزع عن حضارة خابية، فالفكر مقود الحياة، ومقود التقدم فإذا أقعى عنها فهو فكر بائد، وإن وقف دونها إعلاء لمقدسات مأثورة فهو

فكر محافظ، لا ينبذ التقدم ولكنه يبقى على مأثورات ماض له عبقه وله ريحه الندى الفواح وجذوره الضاربة فى أغوار القدم، فإذا تصدى للجديد فإنه لا يعمل على تقويضه ونبذه بقدر ما يعمل على التكيف معه والانتفاع به، فإذا جمد على القديم ونبذ الجديد فهو فكر رجعى لا يلبث أن تجتاحه ثورة الجديد.

وإذا أسِنَ الفكر وذبلت جذوره وتصوحت فروعه النامية وارتدّ عما نال من تقدم وعما جنى فى ماضيه من ثمر طيب فهو الانهيار الذى لا يقف بالمجتمع على ما حققه من تقدم إذا ما كان له فى ماضيه أثر حضارى، كما كان شأن العرب يومًا ما، ولكنه ينكص عنها ويرتدّ إلى ما وراءها فقد جاء على العرب يوم أثروا فيه الفكر الإنسانى والتقدم الحضارى بخير ما بلغته الحضارة يومذاك، فلما حلّ بهم البوار لم يقفوا على ما وصلوا إليه بل ارتدوا عنه وتخلفوا دونه، وأصبح عليهم أن يبدءوا البناء من جديد.

والفكر مناقب شتى فإذا خاض فى حياة المجتمع فهو فكر اجتماعى كما كان قاسم أمين فى تحرير المرأة، وإذا كان فى الدين أو العقيدة فهو فكر دينى كما كان عند محمد عبده ورشيد رضا وقبلهما محمد بن عبد الوهاب فى نجد والشوكانى فى اليمن، وإذا كان فى السياسة فهو فكر سياسى كما كان من لطفى السيد على صفحات الجريدة وغيره من أئمة هذا الفكر فى أوربا من أصحاب نظرية «العقد الاجتماعى» وغيرهم، كما نجد الفكر الاقتصادى، والفكر

العلمى، والفكر الفلسفى الجامع الذى يخوض فى مسائل الكون والوجود والإنسان والحياة، ومهما تباينت دروب الفكر فإنه ينشد الجديد دائما ويتطلع إليه.

وقد نرى فى الأدب والفن لونا من الفكر، ولكنه فكر يصدر مغلفًا بالمتاع العقلى فى القصة والرواية والقصيدة الشعرية واللحن الموسيقى والصورة المعبرة، فإذا قام الفكر بذاته بعيدا عن الأدب والفن، فهو فكر خالص يخاطب العقل دون العاطفة.

وخاض الدكتور هيكل فى مجالى الفكر بعيدا عن الأدب وإن بقيت لمسة الأدب تطبع أسلوب المفكر وتعبيره، ولابدّ للمفكر من نفحة الأدب حتى يروق فكره ويعذب ورده. ويتسنى لصاحبه أن يصدر به، وإلاّ غدا فكرًا جافًا يزور عنه سواد الناس إذا لم يجد من صاحبه رصانة التعبير والقدرة على البلاغ.

ولا يصدر الدكتور هيكل بفكره مباشرا كما هو شأن المفكرين الباحثين الذين يخلصون ببحثهم على جانب معين من جوانب الفكر الإنسانى كبرتراند رسل حين يصب فكره على الإنسان فى عالمه والمجتمع فى عصره والدولة فى دنياه، أو جان جاك روسو حين يلوذ بالطبيعة مفكرا، ويبدع العقد الاجتماعى أساسا لفلسفته الاجتماعية والسياسية، أو جمال الدين الأفغانى الذى راد ميدان الاستنارة الإسلامية معلّمًا وهاديا وثائرا، أو لوك أوهوبز أو جون ستيوارت مل، ولعله أقرب إلى كارليل حين يفصح عن فكره من ثنايا نظرته

التاريخية كما هو فى «الأبطال» وفى تأريخه للثورة الفرنسية، أو شللى حين يعبر فى شعره عن مآسى المجتمع وعن الحقيقة من خلال الرؤيا وعما ينشده للبشرية من مستقبل حافل بالخير والسعادة.

وخاض الدكتور هيكل بفكره فى قضايا المجتمع والسياسة والحكم والفلسفة من خلال كتاباته ومؤلفاته العديدة، وكان التاريخ والسيرة مجلاة فكره فيما يرى وفيما ينشد، كما كانت مذكراته السياسية صورة أمينة لواقع يصدر فيها برأى فيما يعتقد ويراه أهدى لسلوكه ومحاذيره.

فى ميدان الفلسفة

وقد جذبته الفلسفة إليها فى بواكير شبابه حين خاض فيها ألحت عليه الفلسفة الإسلامية حول «القضاء والقدر» فكتب خمس مقالات نشرها تباعا فى مجلة المقتطف عام ١٩١٧ بعنوان «القدرية والجبرية» فإن «القدر والجبر» - كما يراهما - مسألة قديمة «وربما كانت أعرق فى الوجود من كل فكرة أخرى، ولما جاءت الأديان جعلتها موضع نظر ولكنها لم تتوصل إلى حلها بل تركتها بحذافيرها تنتقل من جيل إلى جيل حتى وصلت إلينا ولم تزل الشغل الشاغل للمفكرين والفلاسفة».

ويذهب الدكتور هيكل وسطًا بين القائلين بالجبر والقائلين بالاختيار، ويقول: «إن الاختيار معدوم من الوجود جملة وإنما تصرفنا قوانين مرتبة نعرفها ومصادفات واتفاقات ربما كانت تسير على قوانين عليا لا نعرفها... وهذه الحرية الجزئية الضئيلة التى نعتقد أننا نملكها بيدنا وأنّا نتصرف على مقتضاها فى حياتنا اليومية أيضا وما نراه منها إنما هو خيال ووهم» ولكنه يرى أن «نفى الاختيار

إطلاقا مغالاة، وأن من الواجب الاعتراف باختيار نسبى للفرد يميز به بين الخير والشر والحسن والقبيح ويمكن معه احتمال مسئولية العمل الذى يعمله، وأن هذا الاختيار النسبى الذى هو أساس المسئولية ونتيجة من نتائج حرية الإرادة حرية نسبية وهو متعلق بالفرد مُلتصق به بل هو جزء منه».

ويمضى فى تحليله هذا الاختيار النسبى فيراه هو الآخر محكوما بمؤثرات خاصة، وأنه يسير فى الطريق «الذى رسمته لها هذه المؤثرات» ويجمل هذه المؤثرات فى تأثير الزمان والمكان وفى أحكام الوراثة وفى حكم العادة، وهذا الاختيار النسبى هو أساس المسئولية إذ أن «معاملاته مع الناس متعلقة بهذه الجزئيات» وأنه «يتمتع بهذه المسئولية بحرية تامة».

أما الإرادات العليا التى يتمتع بها الأقوياء الذين استطاعوا «أن يغيروا وجه العالم بإرادتهم» فلأن أصحابها «أكثر ملاءمة للزمان والمكان» حيث يكونون «والضعيف هو الأقل ملاءمة لها» ونراه فى نظرته إلى الجبر والاختيار وحرية الإرادة وأن الإنسان «ذرة من ذرات هذا العالم العظيم الذى لا ندرى فيه حدود الزمان ولا المكان ولا نفقه لها معنى وهو ذرة ضئيلة لا يعبأ الكون بوجودها ولا يهتم بفنائها» أكثر ميلا إلى الجبر، وأن الإنسان لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعا فيردّ ما يلقى إلى هذه الإرادة العليا، الإرادة الإلهية، وكثيرا ما كان يردد «الخيرة فيما اختار الله» وليكن «إيماننا بالله أن نقبل على أداء واجبنا فى الحياة مطمئنين غير هيّابين ولا وجلين».

وكان له بالفلسفة هوى جعله يقبل عليها ويعبّ منها ويرود آفاقها وإن لم يفرغ لها ولكنها كانت زادًا لمعرفته وثقافته العريضة «فالفلسفة - كما أرى - زاد الفكر ومفتاح مغاليقه، ونور العقل لكل من انتضى القلم أديبًا أو مفكرا، أو كان من القابعين على محراب الفكر السياسى، أو الاقتصادى، أو علم الاجتماع، وهى إلهام المؤرخ فى دراسة التاريخ» وقد ترجم لحياة «هبوليت أدولف تن» الفيلسوف الكاتب الفرنسى، إذ كان قريبا إلى مشربه فيما كتب فى الفن، وما كتبه «فى الوصف والسياحة» وفى التاريخ، ولم «يقتصر على كتابة تاريخ بلاده» وإذا كان كتابه - أصول فرنسا الحديثة - الواقع فى اثنى عشر جزءًا هو من أمهات كتب التاريخ الفرنسى... فإنه قد تناول إلى جانب هذا التاريخ بحوثا أخرى فى التاريخ القديم وفى التاريخ الحديث... ووسائله فى النقد والتاريخ... قد أقامت له مذهبًا فى النقد يتسق مع مذهبه فى الأدب وفى التاريخ والفلسفة... وعندى أن مذهبه فى النقد أقرب إلى الدقة من كل مذهب سواه، فهو أشد المذاهب إمعانًا فى «الموضوعية». ونراه يذكر ما كان لتين من تأثير عليه «فلقد قرأت كتبه فى النقد والتاريخ منذ أكثر من اثنتى عشرة سنة وتركت فى نفسى من الأثر ما لم تتركه كتب - أناتول فرانس - الحياة الأدبية، وما لم تتركه كتب أستاذ النقد الكبير - سنت بيف - نفسه، ولست أشك فى أن كثيرين قد يتذوقون نقد - جول لمتر - أو - فاجيه - أو -بورجيه - أو -بول سوداى - أكثر من تذوقهم نقد تين... ما أزال أشعر حتى اليوم حين أعرض

لقراءة كتاب وحين أفكر فى نقده، ولو لنفسى، ومن غير أى فكرة فى الكتابة عنه، على الطريقة التى أحبتها نفسى منذ قراءة كتب تين».

ولعلنا نرى فيما كتبه عن تين مالا يبتعد بنا كثيراً عنه، حين نكتب عن الدكتور هيكل الأديب المؤرخ المفكر، إذ نرى ما بين الاثنين من قرب، لعله لم يبرز فيما كتب حين ترجم لتين، كما برز من بعد حين كتب فى الوصف والسياحة وفى التاريخ وحين كتب من قبل عن بيتهوفن وإعجازه الموسيقى، كما كتب عنه تين قبل ذلك بمائة عام وتحمله قرابة الفكر بينه وبين «هيبوليت أدولف تين» على تلخيص الترجمة الفرنسية التى نقل إليها «تين» كتاب «البوذية» للكاتب الألمانى الشهير «كوبين» وينشرها على أربعة أعداد من «السياسة» عام ١٩٢٣.

وتستهويه الفلسفة الوضعية - أو الواقعية كما يسميها - التى يتصل نسبها بالفيلسوف الفرنسى العظيم، أوجست كومت «إذ يراها قد تركت أثرا بالغا فى التفكير الإنسانى فى الأجيال الحاضرة» فيقوم بترجمة المقدمة التى وضعها «الأستاذ الكبير ليفى برول من أساتذة السوربون» لكتابه عن «أوجست كومت وفلسفته... ولعظيم فائدة هذه المقدمة تنشر ترجمتها العربية لقراء السياسة الأسبوعية، وإن لم ينشر غير بعضها على عددين فى سبتمبر ١٩٢٧، أما بقيتها فقد بقى مخطوطا، حتى نشرت جميعا بعد وفاته فى مؤلف صدر بعنوان «الإيمان والمعرفة والفلسفة» يجمع فى الواقع كل ما خاض به قلم

الدكتور هيكل فى الفكر الفلسفى وقد كتبت جميعا فيها بين عام ١٩٢٦ وعام ١٩٢٩، ما عدا دراسته عن «القدرية والجبرية» فقد نشرت عام ١٩١٧.

وقد بدا غريبا أن يشغل الدكتور هيكل فى تلك الآونة بمسألة الجبر والاختيار فما كانت مما يستقيم - كما يرى الأستاذ شفيق غربال فى كلمته الموسوعية التى ألقاها فى حفل استقباله عضوا بمجمع اللغة العربية فى المكان الذى خلا بوفاة الدكتور هيكل: و«الظروف السائدة إذ ذاك ظروف الحرب العالمية، وما كانت تعانيه مصر فى تلك الأيام، وأسلوبها يخالف أسلوب مقالات «السفور» كما يرجح الأستاذ أحمد هيكل المحامى الذى يقوم بنشر تراث أبيه وتقديمه «أن هذا البحث كتب من قبل وتأخر نشره إلى تلك السنة، بل إنه كتب أثناء إقامة الدكتور هيكل بباريس يعد للدكتوراه، أو فى أعقاب إيابه منها فى سنة ١٩١٢ «وإن كان الدكتور هيكل يذكر صراحة أنه كتبها فى الوقت الذى كان يكتب فيه للسفور ولا أعرف أنه نشر شيئًا مما كتبه فى «يوميات باريس»[١] وليس غريبًا أن يكتب بحثا كهذا فى نفس الوقت الذى شغل فيه بترجمة البحث الذى لخص فيه الفيلسوف الفرنسى هيبوليت تين

---

(١) ما زالت «يوميات باريس» التى دأب الدكتور على تدوينها وهو يطلب العلم فى فرنسا من سنة ١٩٠٩ إلى سنة ١٩١٢ مخطوطة لم تنشر يحتفظ بها ابنه الأستاذ أحمد هيكل المحامى.

كتاب «كوبين» عن البوذية، وإن كان موضوعها وليس أسلوبها - كما يقول الأستاذ شفيق غربال - غير ما كان يكتب فى السفور، فلم تكن مثل هذه الفصول العلمية مما ينشر فى السفور وإنما كانت أقرب إلى ما ينشر فى المقتطف، أما أن موضوعها «لايستقيم مع الظروف القائمة إذ ذاك» فإن تلك الظروف التى كانت قائمة هى التى كانت تحول دون نشر ما يتصل بها، وهى التى أشار إليها الدكتور هيكل بقوله: «لم أكن أنا وأصدقائى الكتاب الشبان قادرين على أن نكتب شيئًا عن سياسة، فالرقابة على الصحف كانت تحول دون ذلك بل لقد بلغ من شدة هذه الرقابة أن عطل الكتاب السياسيون صحفهم، وأن عطل لطفى بك السيد، وحزب الأمة «الجريدة» منذ سنة ١٩١٥، فاتخذوا من السفور ميدانا لأقلامهم «وصدرت السفور أسبوعية أدبية اجتماعية لا شأن لها بالسياسة» ولكنها ما كانت تطيق مثل هذه «الفصول العلمية» عن الجبر والاختيار، ولم يكن لها مكان فى غير المقتطف بطابعه العلمى والفكرى.

ولعل هذا التحرر من الكتابة السياسية هو ما حمل الدكتور هيكل على مثل تلك البحوث العلمية عن البوذية وغيرها، وأن يندفع - كما يقول - إلى كتابة الجزء الأول من كتابى «چان چاك روسو حياته وكتبه» عدا موضوعات شتى كتبتها ولم أنشرها.

وظل الفكر الفلسفى يشده إليه طوال تلك السنوات التى تلت

عودته من فرنسا، وقد كان مما شغله من الفكر العربي خلال سنيه في باريس نظرة الغربيين والفرنسيين كما شاهدهم إلى الدين مما يشير إليه ويشغل تفكيره في «يوميات باريس» فكان إقباله على الفلسفة الوضعية وإن لم تستحوذ عليه ليكون عليها منهاجه الفكرى، ولم تكن أكثر من هاد يضيء له ظلمات الطريق ليمضى فيه كما يريد، فإذا كانت أوضاع العصر وما كان للثورة الفرنسية من أثر على فلسفة كومت ومعاصريه، فإن هذه الأوضاع تختلف تماما بالنسبة للدكتور هيكل، إلاّ أن بناء عالم جديد على أنقاض العالم الذى قوضته الثورة الفرنسية كان أشبه فى مصر بالعالم الذى قوضته الثورة العرابية «فالعصر المضطرب الذى تداعى» يجب أن يعقبه نظام جديد، وكانت مصر تجاهد لتتحرر من إسار عالم قديم ومن نظام إن عجزت الثورة العرابية عن تقويضه فإن الذين جاءوا بعدها يجدون سعيًا لإقامة هذا النظام الجديد على أطلال النظام القائم على اختلاف ما بين فرنسا ومصر بل على اختلاف ما بين الشرق والغرب.

وإذا كان الفكر الفلسفى لدى كومت وأضرابه من فلاسفة القرن التاسع عشر فى الغرب يتجه إلى بناء النظام الاجتماعى، فإن الفكر المصرى كان يتجه خلال تلك الفترة وما بعدها إلى بناء نظام اجتماعى يرد الأمور فى مصر إلى أبنائها المصريين، وإلى إقامة فكر جديد يتحرر من رواسب الماضى الدينية يستهدى فيه الدين العقل، ولم تكن العقيدة الإسلامية تنكر قضايا العلم أو تجفوها، ولم يكن ثمة

صراع فى الإسلام بين العلم والدين، كما كان بين الكاثوليكية والعلم فى أوربا.

فإذا كانت فلسفة كومت قد تخطت حدود نشأتها الفرنسية، وكان لها تأثيرها البالغ فى الفكر الأوربى حينذاك، ووسمت بطابعها «المفكرين الأجانب» واستمد منها «جون ستيوارث مل» و «هربرت سبنسر» و «جورج لويس» و «جورج إليوث» وغيرهم من فلاسفة الإنجليز وكتابهم أفكارها، ثم كانت لها إرهاصاتها فى الجامعات الألمانية قبل ذلك بثلاثين عاما، كما كان لها تأثيرها بين الشعوب اللاتينية فى أوربا وأمريكا الجنوبية والشعوب الأنجلو أمريكية فى أمريكا الشمالية فلا غرو أن يمتد تأثيرها إلى هذا الجيل من المفكرين المصريين الذين تلقوا تعليمهم فى فرنسا ممن شغفتهم المباحث الفلسفية، وأن تكون أقرب من غيرها إلى مزاج الدكتور هيكل وتكوينه العقلى، هذا المزاج الذى يبدو فى «يوميات باريس» عندما يعرض للدين والسياسة والأخلاق يتلمس فيها الحجة والدليل فيما يهتديه العقل منها لسلامة الإيمان بها، وخلق الانسجام بينها وبين العقل بعد أن اجتاز العقل مرحلة التفكير الدينى إلى التفكير الميتافيزيقى ليثوى إلى التفكير الوضعى، الذى يفسر حركة المجتمع، ولم يكن الانتقال من الفكر الدينى إلى الفكر الوضعى طفرة، وإنما جاء الفكر الميتافيزيقى ليصل بينهما، وهو ما دعاه كومت «قانون الحالات الثلاث» وهو «أساس التماسك المنطقى» - كما يرى كومت - «وهذا القانون من قوانين الحركة

الاجتماعية-كما يقول الدكتور هيكل - هو حجر الزاوية لكل المذهب الوضعي».

رجال الدين ورجال العلم:

وقبل أن يقوم الدكتور هيكل بترجمة هذا البحث عن كومت، يكتب عن «رجال الدين ورجال العلم» على ثلاثة أعداد من السياسة الأسبوعية خلال شهرى يونيه ويوليه ١٩٢٦، وكان كتاب «الإسلام وأصول الحكم» قد ظهر قبل ذلك بعام، وأثار ما أثاره من ثائرة رجال الدين، فهل كان ذلك مما حفزه على كتابة هذه المقالات الثلاث عن رجال الدين ورجال العلم؟

نستطيع أن ندعى ذلك وإن كنا لانجد فيها أية إشارة إلى موقف رجال الدين من كتاب «الإسلام وأصول الحكم» ونستطيع أن نقول أيضًا - وهو الأرجح إنه أراد أن يقرر حقيقة يؤمن بها تماما، وقد بدت بينة واضحة فى كتاباته الإسلامية فيما بعد، وهى لا خصومة بين الدين والعلم ولم تكن «بينهما خصومة، ولن تكون بينهما خصومة، فأما الخصومة بين رجال الدين ورجال العلم فخصومة قديمة لأنها خصومة على الاستئثار بالسلطة وبنظام الحكم.. لأن الدين يقرر المثل الأعلى لقواعد الإيمان التى يجب أن يأخذ الناس بها فى حياتهم، والعلم يقرر الواقع فى حياة الوجود ويترسم تطور الحياة فى سبيل سيرها نحو ما يظنه الكمال «وقد قضى التقدم العلمى فى القرون الثلاثة الأخيرة فى أوربا» أن يتغلب رجال العلم على رجال الدين شيئًا فشيئًا... وقد

تقدمت الاختراعات على يد رجال العلم إلى حد أيقن الناس معه أن رجال الدين - على حاجة الناس إليهم لهدايتهم فى سبيل الله - أقل صلاحا للحكم وتنظيم شئون الدنيا من رجال العلم إلا أن «الإسلام على خلاف سائر الأديان يتناول أمور الدين وأمور الدنيا ويحض على طلب العلم فالعلماء عند المسلمين هم رجال الدين».

ويبدو أن مقاله الأول قد أثار نوعا من الجدل عرض له فى مقاله التالى مقررا «أن الخصومة بين رجال الدين ورجال العلم« خصومة مادية العلم لذاته برىء منها والدين لذاته برىء منها... فالدين والعلم قديمان... متجاوران فى النفس الإنسانية منذ الأزل الإنسانى» ويمضى الدكتور هيكل فى إنكار الخصومة بين الدين والعلم وإن بقيت الخصومة بين رجال الدين ورجال العلم ما وجد كل منهما للسلطة منفذا ينفذون إليه.

أما وقد حطم العلم الوضعى ماران على العالم من جمود فى وقت كان فيه «رجال الدين هم مثال الجمود وصورته» واختفى «ذلك النور الذى كان يضىء ظلمات الغيب فى هذه الهياكل الخربة التى كانت معدة فى الماضى لتكون المنارةالتى يشع منها... فقد صار واجبا أن تقوم منائر أخرى غير خربة ينبعث الإيمان من خلالها حيًّا قويا نزيها من شبهات المادة وظلمها متصلا بأسمى أسباب الكون، فتسير الإنسانية على هداه ولا يضل السواد السبيل بارتكاسه فى حمأة الحياة الدنيا... فلو أن العلم كان يسد حاجات البشر يظل الإيمان به

على ما كان عليه فى منتصف القرن التاسع عشر، ولما اضطرب الناس فى أوربا ومن بينهم عدد كبير من العلماء يريدون إيمانا كإيمان العجائز».

ولا يقطع الدكتور هيكل برأى فى هذه الحيرة «وكل الذى نقطع به أن الخلاف ليس بين هذه المضاربات الفكرية لذاتها ولكنه خلاف كان ولن يزال على الاستئثار بالسلطة وبنظام الحكم، فالسلطة إنما يليها الذين يستطيعون سداد حاجات الجماعة العقلية والنفسية والمادية.. وكل الذى ترجوه الإنسانية فى تطورها أن يسير بها أولو الأمر فيها إلى أسمى ما نرجوه من غايات النظام والتقدم والسلام».

ولعله إذ قدم لقرائه فلسفة أوجست كومت بعد ذلك بسنة، كان يبغى أن ينقل لقرائه ما يثور من فكر فى أعقاب عصر تداعى فيه النظام القديم، ليقوم نظام جديد، «فالإنسانية - كما يقول سان سيمون - لم تخلق لتقيم فى الخرائب والأطلال الدارسة».

وكان ما أشار إليه فى ختام مقالاته عن - الدين والعلم - «من ظمأ النفوس إلى الإيمان ونفورها فى نفس الوقت من رجال الدين وإيمانهم» ما يؤيده «اتجاه أوربا منشأ الدين ومهبطه» بعد أن رأت العلم لا يسد دائما حاجات البشر «تبتغى أن نجد فى الشرق مهبط الوحى ومبعث الديانات هدى من دياجير ظلمة القلوب» فاتجه لما قر عليه رأيه أخيراً من أن «المعرفة أساس إيمان المستقبل»

ليكون عنوانا لمقال «فى سبيل حياة جديدة» نراه تكملة لمقالاته عن «رجال العلم ورجال الدين» وينشره قبل أن يبدأ عرضه لفلسفة كومت، يقرر فيه رأيا مسبقا، يقول فيه: «إن مالا نعرف من الغيب أبعد فى حياتنا النفسية مدى مما نعرف من العلم».

الفلسفة والعلم والإيمان:

ورأى الدكتور هيكل فى أعقاب الحرب – الحرب العالمية الأولى – اضطرب العالم «بشعور يبدو أثره فى ظاهرات من الفوضى تارة، ومن الإباحية تارة أخرى، ويتمخض ثالثة عن ثورات اجتماعية واقتصادية غير معينة المطالب والنتائج» فإذا كان الاضطراب الاقتصادى الذى عم العالم له أثره الكبير «فى هذا الشعور العام، لكننا نعتقد أنه ليس العامل الأساسى.. وأن هناك عاملاً نفسيًا ترتب هو الآخر على الانقلاب الذى أحدثته الحرب.. هذا العامل النفسى يرجع إلى عقائد الجماعات وتقديرها قواعد الخلق وبحثها عن مثل أعلى يكون مطمح الإنسانية الذى تشعر به وتجدّ لتحقيقه» وإذا كان الإيمان بالعلم قد تداعى فى النفوس؛ إذ لم يحقق للناس «السعادة» فراحوا يلتمسونها.. «فى ماضى الشرق الروحى».

أما وصورة العالم قد تغيرت عن ذى قبل، فأصبح الناس فى شتى بقاع العالم أقرب إلى بعضهم البعض مما كانوا من قبل، وحل نوع

من «الإخاء بين أهل الأديان المختلفة.. وقربت الاختراعات بين أجزاء العالم تقريبًا لم يكن يدور بخلد أحد إلى ما قبل الحرب بزمن قليل.. ولم يقف الأمر عند اختلاط الأجناس وتقارب الممالك بل لقد تقاربت أفلاك الوجود كلها بما كشف، وما لا يزال يكشف العلم عنه من كنه هذه الأجرام وصلاتها بالأرض.. ولم تكن جماهير الأمم المختلفة قد اقتنعت به اقتناعها اليوم» إلّا أن هذا الاقتناع - كما يقول - «زلزل كثيرًا من قواعد إيمانها القديم وإن لم يضع مكانها قواعد أخرى، وإذا كانت الجماهير لا تطيق العيش من غير قواعد ومثل عليا فقد تدافعت إلى ما تدفعها سلائقها إليه من الاستمتاع بالحياة وبكل ما فيها على أبسط صور الاستمتاع وأقربها لإشباع الشهوات وذاعت الفوضى والإباحية».

أترى هذه الإلمامة الفكرية هى التى ساقته إلى عرض فلسفة كومت، أن رأى هذه الصورة التى خلفتها الحرب شبيها بما خلفته الثورة الفرنسية عندما أفرزت تلك الحركات الفكرية العديدة، وكانت الفلسفة الوضعية أبرز معالمها؟

وإذا كان قد رأى حينذاك أن مبادئ الثورة الفرنسية، قد ألبت عليها «ممالك أوربا» وأن هذه الصورة التى خلفتها الحرب العالمية (الأولى) لم تثر «من عداوة الدول المختلفة ما أثارت مبادئ الثورة الفرنسية» فقد رأينا من بعد ذلك بقليل ما كان للفاشية والنازية من أثر جرف العالم فى تياره فى فترة ما بين الحربين، ثم ما كان فى

أعقاب الحرب الثانية من انقسام العالم إلى عالمين متصارعين، كل منهما يحاول أن يملى عقيدته ونظامه ويرى فيها سعادة العالم وأمنه، وما نجم عن صراعها من تمزق نفسى واجتماعى، بينما العلم يطلع على العالم كل يوم بجديد يقوض أركان العالم القديم ليقيم على أنقاضه عالمًا جديدًا بقدر ما حقق من سيطرة على الطبيعة فإنه مازال بعيدًا عن الإحساس بالأمان والشعور بالسعادة فى ظل الرعب النووى والصراع الفكرى الذى يفوق ما كان من صراع دينى أفرزه التعصب المقيت، وما تلاه من صراع بين النظرة العلمية والنظرة الدينية إلى الوجود والكون، أو ما يجب أن نسميه «صراعًا بين رجال العلم ورجال الدين».

وإذا كان الدكتور هيكل ينتظر «اليوم الذى تعلو فيه صيحة الهدى والحق» وإن علينا أن نمهد للإنسانية سماعها» وهى فى اعتقادنا لن تخرج عن «دائرة العقل والعلم». فلا نحجب من العلم ونتائجه» ما يجب على كل فرد أن يعرفه «وأن يعرفه على طريقة علمية صحيحة وأن يبنى على هذه المعرفة عقائده وعاداته وأخلاقه.. فإذا تقررت هذه القاعدة فى حياتنا العملية وهتكت المعرفة حجاب السر، وأصبحت الجماهير تدرك أن قداسة الأشياء والمبادئ راجعة إلى أنها هى التى جعلتها مقدسة لأنها سبيل سعادتها الممكنة، ووقف الأفراد على ما للطبيعة من قوانين، وما للإنسان على الطبيعة من سلطان، وسار العلم فى نفس الوقت بالخطى الواسعة التى يسير اليوم بها، إذا

حدث ذلك أمكن تمهيد الإنسانية للصيحة المنتظرة ولقواعد العقيدة والأخلاق الجديدة».

ومع ذلك لا يصل بنا الدكتور هيكل إلى نوع المعرفة التى يتوافق فيها الجانبان المادى والروحى، وإن رأى فى ثورة الفكر الأوربى وفى الفلسفة الوضعية بالذات ما يصل بنا إلى التوفيق بين ما هو مادى مما يخضع للعلم وما هو روحى مما يغيب عن العلم وينأى عنه.

ولعله إذ يسوق لنا عرضًا لرواية - جورج دوهامل - الكاتب الفرنسى الكبير «ليلة عاصفة - Mne nuit d'ang» يحاول أن يضعنا فى أغلال تلك الحيرة، فالقصة تدور حول زوجين جمع بينهما الحب والإيمان الخالص بالعلم، ولكن الزوجة تشعر بانحطاط فى قواها يزداد على الأيام، ويعجز الأطباء عن تشخيصه ومعرفة سببه أو علاجه، ويذكر الزوجان من بعض ما جلباه من آثار احتفراها فى صحراء الجزائر وعادا بها إلى فرنسا «وفيها كان عم الفتى يتفرج على هذه الآثار استوقفته إحداها ففحصها وقرر أنها مشئمة وطلب إليهما أن يدفعا له بها، واعتذر الزوج عن إجابة طلب عمه» فلما رأى زوجه تزداد ضعفًا يومًا بعد يوم» فكر فى أن «تكون هذه المشئمة التى أتيا بها من الجزائر هى سبب المرض»

ويقع الزوج فى حيرة بين هذه الفكرة التى أخذت تلح عليه وإيمانه بالعلم «فليس من حق أهل العلم أن ينزلوا إلى هذا الدرك وأن يتوهموا للحوادث أسبابًا غير ما فى الطبيعة مما يتناوله فهمنا أو

يمكن أن يتناوله «أليست هذه الأوهام» تجديفًا فى حق العلم وردة عن الإيمان به، وتطليقًا لحكم العقل، وخضوعًا لخداع الوهم؟».

ويكتشف أن ما عراه قد عرى زوجه، ويردّه كبرياء العلم عن التخلص من هذه «المشئمة» ولكنه يأمل أن تقوم زوجه بالخلاص منها، ولكن «المشئمة» تختفى من مكانها، وتطمئن الزوج إلى اختفائها فتعاودها صحتها «وآمن الزوج أن الحياة ما يزال فيها مغالق تثير الوهم فى أقوى النفوس إيمانا بالعلم، وتجعل العلماء كثيرًا ما يجيبونك على ما تسألهم عنه: قل ما ندرى»

ولا يرى الدكتور هيكل لنفسه رأيا ثابتًا فى ذلك «وإن كنت لا أسيغه فلسفة للحياة وحكمتها، وإن كان ضعف الوهم أقوى أثرًا من كبرياء العلم، وإن ما لا نعرف من الغيب أبعد فى حياتنا النفسية مدى مما نعرف من العلم «وقد يبدو صحيحًا أن «النفس كلما كانت أشد قوة كانت أقل للإيمان حاجة، لكنه إن صح لا ينفى أن الإيمان كمين فى النفس كمون الضعف فيها.. وفى رأينا أن الإيمان والعلم لا يتناقضان» ولنا إذا ألمت بنا ملمّة أو «مرّت بنا فى الحياة عاصفة حالت بيننا وبين القيام بواجبنا فلنطأطئ الرأس للعاصفة ولنذعن لوحى إيماننا فى الوسيلة لاتقائها».

إلّا أن هذه الحيرة لا تلبث أن تميل إلى جانب الإيمان منها إلى العلم التجريبى، وإنه ليشعر «اليوم بأن ما تخيلته فى زمن من الأزمان عن العلم التجريبى واقتداره المطلق على حلّ ألغاز الكون

والحلول بذلك فى نفس الجماعات محل الإيمان ليس يبلغ فى نفسى إلى مكان العقيدة واليقين بمقدار ما كان يبلغ منها فى صدر شبابى».

إيمان الشرق:

أتراه تقدم السن وما يعتوره من حكمة هو ما حرر الدكتور هيكل من حيرته - كما نعتقد - أو نرده إلى ما قرره الدكتور هيكل من حالات الضعف التى تلم بالإنسان وتقربه من الإيمان، فإن فوات الشباب وسورته قد يؤدى إلى الحكمة التى نسميها ضعفاً، أو الضعف الذى نسميه حكمة وإن كنا على يقين من أن تقدم السن يضفى على الإنسان من الهدوء والتريث ما نسميه حكمة أو ضعفاً، ولعله أقرب إلى الحكمة منه إلى الضعف، ولكنه على أية حال يتسم بقدر أعظم من الصدق واليقين.

وقد مر زمن طويل منذ طرق الدكتور هيكل ميدان الفلسفة فى بحثه «القدرية والجبرية» إذ كتبه ولما يقترب من الثلاثين، وهذا المقال الأخير الذى نشره على صفحات السياسة الأسبوعية فى مايو ١٩٢٩، وقد بلغ الأربعين وفاتها بقليل، وتلك هى سنّ الحكمة واليقين، وإن رد هذا اليقين إلى اتصاله «بالحضارات القديمة، وبالحضارات الفرعونية منها بنوع خاص.. وما كانت ترتكز عليه من صور الإيمان التى تحفز الجماعات إلى مضاعفة السعى والعمل فى الحياة، وتصل بهم لذلك أن يخلدوا على الزمن من آثار علمهم ما لم يقدر الزمن على إخضاعه لناموس البلى، وما لا يزال حتى اليوم

وحتى ألوف السنين مقبلة شاهدًا على قوة حضارة شادت هذه الآثار الخالدة».

وازداد إيمانه بذلك بعدما شاهد من آثار الفراعنة فى الأقصر وأسوان، بل إنه ليأمل أن يكون البعث الجديد لحضارة إنسانية من هذا الشرق «وستكون حضارة الفراعنة هذه، وحضارة الشرق والإسلام بعدها هى العامل الأكبر فى هذا البعث» أساسا لحضارة جديدة «يتزاوج فيها العلم والإيمان فيرتوى منها العقل والنفس جميعًا وتجد فيها الروح الإنسانية غذاء يجمع لها بين الرخاء والسعادة وبين النعمة والطمأنينة».

وعلينا أن نبحث الإيمان على أنه واقعة اجتماعية لا حياة للحياة بدونها.. وليس كمصر ميدان لهذه المباحث، ففيها نشأت الحضارة الأولى، وعليها تقلبت كل الحضارات والأديان التى تبعتها «ومن حقنا ونحن «أجدر الناس بأن نقوم بهذه الدراسة.. أن نطمع فى هذا التوفيق بين العقل والروح نقيم من هديها الحضارة التى يلتمسها العالم اليوم».

وهذا ما صدق بعد ذلك بسنوات لم تطل حين ذهب مفكرو الغرب يلتمسون فى أديان الشرق زادًا لحضارة الغرب التى تعصف بها مادية جائرة، فنرى لورد لوتشيان فى الخطاب الذى ألقاه فى المؤتمر الدينى بجامعة عليكرة عام ١٩٣٨، بعد أن نشر الدكتور هيكل حديثه ذاك بعشر سنوات، يلقى هذا السؤال:

«هل يستطيع دينا الهند العظيمان: الإسلام والهندوكية، أن يصمدا لضغط النظرة العلمية الحديثة الناقدة بأكثر مما استطاعت الأديان الأرثوذكسية فى الغرب؟ ثم يقول: هذا سؤال هام على قادة الهند الدينيين أن يواجهوه، إذا كان للهند أن تتجنب الكوارث التى ألمت بالغرب. إن النظرة العلمية ستذيب بالتدريج ما بقى فى نفوسنا من خرافة وهذيان وجهل ولكن هل تتزعزع من هذا قيمة التعاليم الروحية التى بشر بها الدينان العظيمان بين المثقفين من الجامعيين والجامعيات الذين سيقودون خلال الجيل أو الجيلين القادمين الحياة الثقافية والصناعية والسياسية فى الهند؟ فالإنسان بعد أن تراكمت عليه مشاكل العلم وازدادت دون حلّ يلتمس فى الدين الهداية فى حلكة الشكوك والمشاكل، وعلى الدين - إذا أراد أن يستعيد مكانته أو يبقى عليها - أن يقدم حلولاً روحية علمية تؤدى إلى نتائج حتمية».

ولم تكن محاولة الدكتور هيكل لبعث أدب مصرى قومى غير محاولة للتوفيق بين حضارات الشرق القديمة وحضارة الغرب الحديثة، أو بين روحانية الشرق ومادية الغرب، وحين قدم قصصه الفرعونى لبعث أدب قومى، لم تكن مصر الفرعونية بغيته، فقد فكر فى أن تكون الحروب الصليبية ميدان هذا الأدب، ولكنه عزف عنها مخافة

أن تفسر بما لا يقصد، ولتكن مصر جميعًا بتاريخها الممتد على الزمن بغيته، فإذا كانت «الحياة فكرة قبل أن تكون عملاً، فكرة تسبق العمل وتوجهه - كما يقرر فى بحثه عن الأدب والحضارة، آخر فصول كتابه ثورة الأدب - والحياة فى هذه الصورة هى الحضارة الحية القوية التى استلهمت الفن والعلم والأدب وألهمتها.. وبعث حضارة الشرق يجب أن يكون بإحيائها.. على الطرائق الحديثة، لا بالتكديس على أكفانها من صفائح الغرب المستعارة ما يزيد فى جمودها وتكلسها.. وهذا الإحياء إنما يكون بتعاون العلم والأدب.. سنكون مدينين فى هذا الإحياء لطرائق العلم الغربى الحديثة.. وسنجد فى علم الشرق وحضارته طرائق أخرى قد تعاون طرائق الغرب العلمية الحديثة» وقد قرأ كتابًا بالإنجليزية عن تاريخ الكيمياء عند العرب، وعثر على نصوص عربية مترجمة «تتحدث بنفس اللغة التى يتحدث بها العلم الحديث عن طرائقه، فالملاحظة والتجربة والتبويب والمقارنة واستنباط القوانين.. كان مما آمن به العرب فى علمهم إيمان الغرب به فى علمه» ويقول: إن هذه النصوص ترجع «إلى القرن الرابع أو الخامس الهجرى» ولم يأخذ بها الغرب إلا أخيرًا.

ولم يكن هناك فصل بين الدين والعلم عند العرب، ولم يهتد الدكتور هيكل - كما يقول - من قراءته العربية «إلى هذا الفصل الدقيق بين العلم والدين على ما أراد مؤلفو الغرب من أنصار المذهب الواقعى (البوزيتيفزم) فلم تكن هناك من تلك الخصومة بين

العلم والدين فى تاريخ الحضارة الإسلامية ما كان من خصومة بينهما فى الغرب أدت إلى فصل الكنيسة عن الدولة على نحو ما حدث فى فرنسا» وغاب عنهم أن «تاريخ الحضارة فى الشرق غير تاريخها فى الغرب» – وأن الحضارة الإسلامية «لا تعرف شيئا اسمه الكنيسة لأن الإسلام لا يقر الاعتراف ولا يقر سلطة القساوسة ورجال الدين».. إذا أردنا إحياء حضارة الشرق من جديد بتعاون العلم والأدب فلا مفر لنا من إحياء هذه التطورات وتاريخها من شق الطريق فى غيابات الماضى الخفى اليوم على أكثرنا، بل علينا جميعًا، لنعيد بذلك بعث هذا الماضى والروح الذى يحركه، فنعيد بذلك بعث روحنا نحن، روحنا القومى فى مصر، وروحنا المصرى فى اتصاله بفلسطين وسورية والعراق والحجاز واليمن وطرابلس وتونس وسائر البلاد التى اتصلنا بها وخضعت وإيانا فى أية حقبة من حقب التاريخ لمصير مشترك، لتكن الحضارة التى تقوم على أساس هذا الإحياء حضارة إسلامية، كما أعتقد، أو حضارة عربية – كما يريد البعض، أو حضارة شرقية متصلة بحضارة فارس والهند، كل ذلك قليل الأثر عند من يريد إحياء هذه الحضارة العظيمة، ولا يريد التلاعب بالألفاظ لغايات سياسية أو غير سياسية».

«ليقتحم أدبنا إذن ماضينا، وليقتحم هذا الماضى بأدوات البحث الأدبى وبأساليب الكتابة الحاضرة، وليقتحم هذه الميادين حرًّا طليقًا غير هياب ولا متردد، وليقتحمها بروح الثورة التى اقتحم بها الأدب الغربى تراث اليونان وروما وتراث الكنيسة من بعدهما، وبروح

الثورة التى اقتحم بها الأدب العربى تراث فارس ومصر واليونان، وليقلّب فى هذا الماضى ما شاء له التقليب والتنقيب بروح النقد والتمحيص والحرص على الحق لوجه الحق وحده.. هذا الأدب هو الذى يقيم الحضارات السليمة الصحيحة، وإحياء هذا الأدب يجب أن نلتمسه فى ماضينا، فى هذا الأمس العظيم الذى يفاخر به الشرق القديم تاريخ الإنسانية جميعًا، والذى يدعونا أن نقيم عليه حضارة الشرق جميعًا».

«أترى آن الوقت الذى يقوم فيه شبابنا بهذا العمل المجيد؟ بذلك أناديه. فهل بلغت النداء؟».

أكانت تلك إرهاصة بما أقدم عليه الدكتور هيكل من بعد حين اقتحم ميدان التاريخ الإسلامى بروائعه «حياة محمد» و«الصديق أبو بكر» و«الفاروق عمر» و«عثمان بن عفان» ثم كان «فى منزل الوحى» رائعة من روائع أدب الرحلات فى معالم الإسلام ودياره الأولى، كما كانت تلك البحوث العديدة فى الفكر الإسلامى بما كتبه عن الإمبراطورية الإسلامية والأماكن المقدسة» و«الحكومة الإسلامية»؟

في رحاب التاريخ

لعلها كانت إرهاصة بتحديد الاتجاه الذى سلكه الدكتور هيكل من بعد حين طرق ميدان التاريخ الإسلامى، واختار أبهى عصوره وأكرم أحداثه ومأثرة الإنسانية فى تاريخها الطويل حياة نبى الإسلام العظيم خاتم رسالات السماء إلى الأرض «محمد» عليه الصلاة والسلام، فلم يكن محراب التاريخ بعيدًا عنه فى سيرة أبطاله ومن كانت سيرتهم هديا للإنسانية أو من كانت له معهم هوى فكر، أو مأثرة تقدير ووفاء، فقبل أن يخوض ميدان التاريخ الإسلامى قدم لنا بعض السير لمن أحب، أو لمن رأى فى سيرته زادًا لعبرة أو نفحة لحب ووفاء أو لمن رأى فيهم وحيا «للحق والحرية والعرفان».

وكم ودّ أن يكتب تاريخ مصر من خلال تراجم أبطالها «تصل التراجم فيها بين عصور مصر المختلفة منذ عهد الفراعنة إلى وقتنا الحاضر، فما أشك أن كتابًا كهذا يكشف من تاريخ مصرٍ عن صلة عصورها بعضها ببعض.. على أنى أعترف بأن عملاً كهذا مما لا يطيقه شخص وحده، وما لاأطيق أنا بنوع خاص، فإننى لم

أتخصص فى التاريخ ولم تمل بى حياتى العملية نحوه إلا بمقدار.. ثم إن مثل هذا الكتاب ليدل دلالة كبرى على بطلان الصورة الزائفة التى يضعها مؤرخو الغرب لتاريخ مصر».

وقد حوى كتاب «تراجم مصرية وغربية» بعض من عرض لسيرهم من رجال «هذا العصر الأخير منذ ولاية الخديو إسماعيل باشا الحكم إلى وقتنا الحاضر، خلا ترجمة لكليوباترا كتبت قبل أن تكتب هذه التراجم جميعًا.. وما دمت قد بدأت هذه الصورة منذ عصر إسماعيل باشا الخديو، فقد رأيت واجبًا إتمامها إلى آخر عصرنا الحاضر» أما من ترجم لهم من «كبار رجال الغرب».. لأنى أحببتهم منذ زمن طويل حبا جما، فلما كانت مناسبات كمرور مائة عام على موت «بتهوفن» أو على مولد «تين» أو نحوهما من المناسبات رأيت واجبًا علىّ لهذا الحب الذى أضمر لأولئك الرجال حبًّا يعادل ما أخذت من آثارهم وما حققت لى من معانى السرور والطرب لها، أن أثبت صورة هذا الحب بإثبات صورة من حياتهم هى الصورة الممتلئة بها نفسى منهم».

وقد نشرت هذه التراجم لمناسباتها فى «السياسة الأسبوعية» إلا قلة منها، قبل أن يصدرها فى كتاب عام ١٩٢٩.

والدكتور هيكل، وإن لم يدّع التخصص «فى التاريخ ولم تمل بى حياتى العملية نحوه إلّا بمقدار» قذفت به حياته الفكرية - إن لم نقل العملية - إلى محراب التاريخ وسير أبطاله بنوع خاص، وقد

رأى حاجته، وهو يكتب رسالته للدكتوراه فى القانون عن «دين مصر العام» إلى الانقطاع لدراسة التاريخ الحديث منذ عهد والى مصر سعيد باشا، والإكباب على هذه الدراسة شهورًا متوالية، وتدوين الملاحظات والوقوف عند الأشخاص الذين كان لهم فى حياة مصر السياسية، أثناء هذا العصر الأخير دور خاص، وما يزال كثير مما وقفت عليه أثناء مطالعاتى ثم لم تقتض حاجة رسالتى تدوينه عالقًا بذهنى ممثلاً أمام خيالى صورة مصر منذ أيام محمد على وصور الكثيرين ممن لعبوا دورًا خاصًا فى حياتها».

لم تكن تلك وحدها أساس جاذبية التاريخ عنده، فالمفكر لا معدى له عن الإلمام بالتاريخ، فالتاريخ «مدونة الماضى لجلاء الحاضر، وفى إطاره هذا لا يبلى قديمه فهو دائم الجدة والتجدد، ذلك أن الإنسانية ترتبط بماضيها ارتباطًا وثيقًا ولا نستطيع من هذا الماضى فكاكًا، ولعلنا نقول مع ربة التاريخ فى الأساطير اليونانية - إنى لا يندّ عنى شأن من شئون الإنسان، فالتاريخ - كما يقول المؤرخ الإيطالى «بندتو كروتشى» كله تاريخ الحاضر فنحن لا نبغى حقًا من دراسة التاريخ غير التعرف على الإطار الذى نعيش فيه ومعرفة أصوله، ولا يتسنى لنا معرفة الحاضر وتفسيره ما لم ندرك الماضى بالبحث عن حقيقة وجوده»[١].

فهل كان للدكتور هيكل المفكر أن ينأى عن التاريخ، فإذا كانت

(١) التاريخ والسير للمؤلف: المكتبة الثقافية عدد ١٢١.

حياته العملية - كما يقول - لم تمل به نحوه إلا بمقدار، فما كان يستطيع أن ينأى عن ميدان يمضي فيه الفكر رائدًا للواقع أو أثرًا من آثاره، وما كان للمفكر أن يقف عند تخصص ما، فإنه يخوض ميدان المعرفة يعبّ منها ما شاء، وما شاءت له نزعات فكره، وقد وقف من التاريخ على جانبه الأخاذ فى سير أبطاله، حين قصد فى تراجمه إلى «الناحية الغالبة فى حياة الشخص والتى كان لها فيه الأثر البالغ» فالأثر التاريخى للسيرة هو الذى يجذب المؤرخين إليها ويحمل كتّاب السير على الاهتمام بها وروايتها حتى لنجردها أحيانًا من طابع الحياة الخاصة التى يحياها الإنسان»[1]. وهو ما قصده الدكتور هيكل وإن اعتذر عنه، حين عالج فى تراجمه «الناحية الغالبة فى حياة الشخص والتى كان لها فيه الأثر البالغ».

وسنرى أن هذا الأثر هو الذى جذبه إلى ترجمة من ترجم لهم. فكليوباترا «هى الفتنة والسحر والذكاء والأدب والنشاط وقوة الإرادة فى أسمى ما تصوره معانى هذه العبارات» وكانت حياتها صورة لهذه المواهب التى كانت لها جميعًا، وما نرى من حياتها إلا ماكان لهذه المواهب من أثر على مسارها. وما كان بتهوفن إلّا تلك «الألحان القدسية» وما كان شلى «إلّا نفسًا بلغت من السمو أرقى سماواته ... حلق به جمال الخُلق فى سماء الشعر إلى ما لم يرتفع إليه معاصر له، وإلى ما لم يسبقه إليه أحد فى رأى كثيرين،

---

(١) مقدمة كتاب أحمد لطفى السيد أستاذ الجيل، للمؤلف.

وما لم يسبقه إليه غير شيكسبير فى رأى آخرين» وأما شيكسبير فما حاجته إلى هرم تدفن فيه بقاياه – كما يقول ملتن – «وقد أقمت لنفسك من إعجابنا وعجبنا تمثالاً لا يبلى.. وليس شيكسبير بحاجة إلى تمثال – فى رأى فكتور هيجو – وله مؤلفاته.. وأنت إذ تذكر شيكسبير – كما يقول – تنسى كل ما فى العالم غير ما خلف شيكسبير».

وما ترجمة الرجل العظيم إلاّ ترجمة للأثر الذى تركه على صفحة التاريخ، وهو ما جذب الدكتور هيكل إلى الترجمة لمن ترجم لهم من الغربيين، أما المصريون فقد ترجم لبعض من ترجم لهم وهذا الأثر الذى خلفوه هو الذى يحكمه، فقد ترجم للخديو إسماعيل إذ يرى «أن أكبر الأثر الذى خضعت ومازالت تخضع له مصر حتى الآن إنما ترتب على حكم إسماعيل باشا» كما ترجم «لمحمد قدرى باشا» لما ترك من مؤلفات «ما يغيب اسم واحد منها عن ذاكرة محام ولا قاض ولا طالب حقوق ولا رجلٍ من رجال الشرع الإسلامى» وترجم «لبطرس باشا غالى» إنصافا له، ولمصطفى كامل «إكبارًا وإعجابًا» وإن خالفه فى الرأى.

وتراه يسفر عن اتجاهه هذا فى ترجمة «إسماعيل باشا صبرى» فقد بدأ الناس لا يذكرونه ولما تمض على وفاته «غير سنوات قليلة» إلاّ أنه كان شاعرًا مجيدًا، فأما النيابة والقضاء ووكالة محكمة الاستئناف ومنصب النائب العمومى ووكالة الحقانية «فلم يبق له.

منها شيء.. أما ما بقى له فذلك الضياء النفسانى الذى يتجلى فى شعره القليل، والذى يعتبر على قلته آية فى الجمال تهتز لها نفوس كل الأجيال والذى يبقى من أجله اسم إسماعيل صبرى على الزمان لأنه على حدّ قول الأستاذ على الجارم فى مرثيته إياه:

لم يمت من يزول فى عالم الحس وتأبى آثاره أن يزولا

ولغير هؤلاء كان التقدير والوفاء والحب هو الذى حمله على الترجمة لهم، فقد عرف «محمود باشا سليمان» و«عبد الخالق ثروت» عن قرب، وكان لهما فى نفسه بالغ التقدير كما كان لكل منهما دوره فى تاريخ مصر، أما قاسم أمين «فقد عنيت بقراءة كتبه وكل ما كتب عنه مذ كنت فى دراسة الحقوق بمصر، فتكونت فى نفسى منه فكرة أحسبها دقيقة غاية الدقة» ولم يقف عند الترجمة له فى هذا الكتاب، بل كتب عنه الكثير ونشره فى «أوقات الفراغ».

ونراه يحث غيره على متابعة تاريخ مصر، والكشف عنه «كشفًا علميًّا صحيحًا وتدوينه على طريقة تجعله عذبًا سائغ المورد لمن يشاء أن يصل إلى الحقائق فيه من غير أن تصده الطريقة السيئة أو اللغة المضطربة أو القصد السيئ» فقد جرى تبويب تاريخ مصر على نهج خاطئ فمن بعد العصر الفرعونى، يذكرون عصر الفرس، ثم العصر اليونانى، ثم العصر الرومانى، ثم العصر الإسلامى أو عصر العرب ثم عصر الترك ثم العصر الأخير عصر الاحتلال الإنكليزى.. وإذا كان صحيحًا أن الحكام الذين تولوا أمر مصر فى عصور مختلفة لم

يكونوا من أصل مصرى صميم فلن يغير ذلك من خطأ المؤرخين وادعائهم خضوع مصر لأمم أجنبية عنها.. وأكثر الملوك الباقين على عرش أوربا اليوم من دماء غير دماء الشعوب التى ملكتهم عليها، وليست هذه الشعوب لذلك أقل حرية واستقلالاً وعظمة مما كانت عليه مصر فى أكثر العصور التى تعاقبت عليها.

ولا يرى الدكتور هيكل فى حكم البطالسة ولا فى الدول التى تعاقبت على مصر بعد الفتح العربى من طولونيين، وإخشيديين، وفاطميين، وأيوبيين، حكمًا غريبًا يدين استقلال مصر، ومثلهم كان حكم المماليك، وكانت ولاية محمد على أريكة مصر لا يضير هذا الاستقلال ولا يجنى عليه شأن كثير من الدول الأوربية التى وليها ملوك من غير شعوبها، وكان لمصر فى كل تلك العصور بناؤها الحضارى السامق وشخصيتها المتميزة، وفى عهد سلاطين المماليك البحرية والبرجية الشراكسة ظلت مصر «حافظة مكانتها التى كانت لها من قبل، وإليهم يرجع الفضل فى إنقاذ آداب العربية من غزوات المغول التى كادت تقضى على العلوم والآداب العربية فى الشرق، فكانت مصر ملجأ للناطقين بالضاد ممن فرّوا أمام التتار فى العراق وفارس وسوريا وخراسان وبقيت لغة حكومتها عربية فى عهد تينك الدولتين، واستظلت العلوم والآداب العربية بحماية الملوك والسلاطين فى مصر، ونبغ فيها طائفة من فطاحل الشعراء والأدباء والعلماء».

فإذا قيل – كما تعلمنا – «عن تاريخ مصر فى هذه الفترة أنها

تعتبر عصرا مظلما، فكيف بذر العصر المظلم كل هذه الآثار المضيئة؟!

أما تلك العصور التى غزيت فيها مصر فإن مصر لم تتح للغزاة الاستقرار بها بداية من الفرس، فالإسكندر والرومان فالحكم العثمانى، وأخيرا الاحتلال البريطانى، فإن مصر لم تك هى وحدها التى غزيت، بل إن هؤلاء الغزاة جميعا قد اجتاحوا العالم فيما حولهم، وقد فتحت مصر أبوابها للإسكندر «لأنها رأت فيه مدوخ الفرس، وكانت بينها وبين الفرس عداوة أشد العداوة» فلما جاء البطالسة من بعد «اطمأنت إلى بقاء بطليموس فيها مستقلا بها مستقلة هى به» وقد وطد هؤلاء البطالسة «لمصر سلطانا أعاد لها ولحضارتها عز الفراعنة الذى اضطرب وتزعزع خلال القرون الثلاثة التى سبقت ولايته عرش إيزيس وأوزيريس.. وبلغ من حبّ بطليموس الثانى مصر وحب مصر إياه أن أصبحت الإسكندرية عاصمة العالم كله حضارة وعلما وإيمانا... وكانت مصر هى سيدة البحار فى ذلك العصر».

وكما ظفرت جيوش الإسكندر بالعالم من حوله، فقد ظفرت جيوش يوليوس قيصر بالشعوب كلها ورفعت راية روما على اليونان والشام وامتدت غزواتها إلى ناحية أشور ثم سارت شمالا وغربا فأخضعت السكسون فى ألمانيا والفرنسيين فى بلاد (الجول)[1]

---

(١) بلاد الغال كما جرت التسمية من بعد وهى فرنسا الحالية.

وأخضعت أهل الجزيرة البريطانية لحكم قيصر، فإذا كانت الأقدار قد عصفت بمصر، فلم تكن مصر لذلك متفردة بالخضوع دون غيرها من أمم العالم» وكان الحاكم الرومانى «يجد أول الأمر أشد العنت فى حكم البلاد، وكان يتعرض للثورات المتوالية تقوم عليه وتضطر روما معها للاحتماء بالإسكندرية أحيانا تاركة داخلية البلاد يحكمها أهلها وتتمكن أحيانا أخرى من قمع هذه الثورات والتغلب عليها وإخضاع مصر لنير روما قهرا عنها» وانتهى حكم الرومان وعقبه العصر الإسلامى لتكتب مصر خلاله صحف مجد فى تاريخها بوصفها أمة مستقلة ناهضة بأعباء الحضارة فى العالم على نحو ما كانت مصر الفراعنة، تاركة من آثار ذلك مثل ما تركوا مما لا يزال شهيدا على العظمة والجلال وتقدم المدنية وارتقاء آثارها من علم وفن إلى أبعد حدود الارتقاء فقد دخل المصريون فى دين الله أفواجا وآوت مصر من العرب حملة هذا الدين وحُماته كل من تستطيع أن تؤويه، ولم يكن ذلك عجبا فى أرض الأنبياء، ولا هو كان عجبا فى عصر لم تكن الفكرة القومية فيه قد نمت النمو الذى نعرف اليوم، فالأماكن المقدسة فى مكة والمدينة كانت معتبرة فى نظر المسلمين جميعا عاصمة المملكة الإسلامية، كما كان الخلفاء الراشدون، ثم أمراء المؤمنين من بعد معتبرين كلمة الله على الأرض تجب لهم على كل مسلم الطاعة المطلقة «ثم كان الإخشيد والفاطميون والأيوبيون فاستقلت مصر» بشئونها بالغة فى أحيان كثيرة المكانة الأولى بين الأمم الإسلامية صاحبة الغلب على أمم العالم جميعا... ثم لن ينسى أحد كذلك

ما كان لمصر من مجد وفخار فى الحروب الصليبية... فقد كانت الجيوش المصرية المظفرة هى التى صدت أكبر الغارات وأشدها هولا... وكان هذا كله والدولة العباسية ببغداد ما تزال باقية.. مما أدى بطائفة من المؤرخين للوقوع فى الخطأ واعتبارهم هذه القرون المتوالية على مصر، وهى متمتعة باستقلالها مقيمة من صروح الحضارة والعلم ما فاق كل ما عرفت بغداد، بعض ما تولى على مصر من غزاة وماناء به أهلها من مهانة وذل.. وليس بى حاجة إلى العود للقول بأن قيام أفراد من دم غير مصرى على عرش مصر لا يدل على أن مصر كانت تابعة لأمة أخرى.

فلما جاءت الحملة الفرنسية قاومها المصريون ثم رفعوا محمد على إلى أريكة الحكم فأراد أن يستقل بمصر وكاد يخضع تركيا لإرادته «لولا أن معها عليه دول أوربا جمعاء، ووقفت فى وجهه برا وبحرا وقضت على الأسطول المصرى فى معركة نافارين... وأبت على مصر هذا الاستقلال وأصرت على أن تظل ولاية تابعة لتركيا حتى لا تستعيد مصر قوتها التاريخية المعروفة وأن تنضم إليها فلسطين وسوريا كما كانتا منضمتين لها فى أكثر حقب التاريخ...» حتى لا تستقل مصر وتقوم فيها دولة «لها هاته القوة والسلطان».

فمصر كما يراها الدكتور هيكل قد عاشت حياة مستقلة قوية ناهضة ولم يكن ما قام بها من حكم الفرس والإسكندر والرومان إلا ما كان بالعالم أجمع حين غلب سلطان الفرس والإسكندر

والرومان وما كان من حكمهم للعالم أجمع لا فرق فى ذلك، بين مصر وغيرها من البلدان التى خضعت لتلك الإمبراطوريات وستكون مصر «فى المستقبل كما كانت فى الماضى عاملا من أقوى عوامل العرفان والحضارة فى العالم».

على الطريق:

ولم يكن هذا الاتجاه - الاتجاه إلى مصر والحضارة العربية أو الإسلامية العربية وإلى الشرق بوجه عام - جديدا على الدكتور هيكل فقد استوى الشرق والغرب فى عقله على وفاق، وكانت حضارة مصر على امتدادها ملء قلبه وعقله على الدوام، ولم تغب عنه صورتها وهو يطلب العلم فى باريس، وكانت قصته «زينب» ثمرة الحنين إلى مصر، «ولولا هذا الحنين ما خط قلمى فيها حرفا ولارأت هى نور الوجود» وقد رأى فى الأدب الفرنسى «سلاسة وسهولة، ورأيت مع هذا كله قصدًا ودقة فى التعبير والوصف وبساطة فى العبارة لا تواتى إلا الذين يحبون ما يريدون التعبير عنه أكثر من حبهم ألفاظ عبارتهم، واختلط فى نفسى ولعى بهذا الأدب الجديد عندى بحنينى العظيم إلى وطنى.

فإذا كان الحنين إلى مصر قد شده إلى كتابة «زينب» صورها قلم مقيم فى باريس مملوء مع حنينه لمصر إعجابا بباريس وبالأدب الفرنسى، فلما عاد إلى مصر كان «جان جاك روسو: حياته وكتبه» أول ما قدم للمكتبة العربية فأصدر الجزء الأول منه عام ١٩٢١

والثانى عام ١٩٢٣، وقد حببه إليه - كما يقول - طريقة التفكير تكاد تكون شرقية... لأنها نوع من إجلال الطبيعة والإيمان بأنها مصدر الخير وأصل نعمة الحياة، والحياة الناعمة... وفوق ذلك حببه إلى فكرة سامية قائمة على أساسين متينين من العدالة الاجتماعية والإيمان بالعمل... فقد كان بطل المساواة والداعى لإزالة الفوارق الظالمة بين الناس» مما سبقت الإشارة إليه.

وحين يكتب عن «أناتول فرانس» وفرنسا تحتفل ببلوغه ثمانين عاما يرى من حقه على المصريين «أن يذكروه... فقد عرف هذا الكاتب الحكيم ما أصاب مصر من ظلم، وما تتطلع إليه من حرية ومجد يوم كان الوفد المصرى فى باريس سنة ١٩١٩» فوقف يشارك المصريين طموحهم إلى الحرية وينصر قضيتهم.

ولما نعى البرق «بيير لوتى» كتب عنه لأنه «أحد محبى الإنسانية الذين امتازوا بالعطف على الشرق وعلى مصر عطفا خالصا من كل شائبة... ولو لم يكن من آثار لوتى الأدبية إلا كتابه - موت أنس الوجود - الذى كتبه عن مصر وأهداه إلى المرحوم مصطفى كامل باشا لحق على المصريين أن يشاركوا فرنسا فى الأسف على موته، وأن يقيموا له بينهم ما يخلد ذكره ويديم أثره... ولكان أول واجب عليهم فى هذا السبيل أن ينقلوا الكتاب إلى اللغة العربية ليقف بنو مصر جميعا على ما انطوى عليه من قوة عبارة، وسحر أسلوب، وجمال وصف، وسلطان عاطفة».

وقد أراد أن ينقل إلى مصر والشرق فكر الغرب، ولم يأخذ منه إلا ما يبعث فى الشرق جلال ماضيه ويراه قريبا من روحه، موجها عقول أبنائه «توجيها جديدا على الطرائق العلمية الحديثة فالحضارة الإنسانية ثورة متصلة.... ونحن فى مصر وفى الشرق كانت لنا حضارات مختلفة انطوت ثم أخضعتنا الظروف لحكم الحضارة الغربية، وقد قامت هذه الحضارة أول قيامها على بعث فلسفة اليونان وتشريع الرومان... ثم جعلت أوربا تستقر بحضارتها رويدا رويدا لتقيمها على الأساس العلمى الذى وضعه ديكارت فى القرن السابع عشر ثم جعل هذا الأساس يتطور من بعد ذلك إلى دين الطبيعة وإلى فلسفة التجريد فى القرن الثامن عشر، ثم إلى العلم الوضعى والفلسفة الواقعية، وإلى دين الإنسانية فى القرن التاسع عشر، وذلك كله من غير أن تنقطع الصلة بينها وبين المسيحية من ناحية أخرى».

فإذا كانت الحضارة الأوربية قد وصلت ما بينها وبين حضارة اليونان وحضارة روما - كما يقول فى مقدمة كتابه «ثورة الأدب» فإنه يتساءل «فماذا عسانا نحن نصنع؟ وإلى أى أدب وإلى أية فلسفة فى الماضى القريب والماضى البعيد يجب أن تنتسب إذا أردنا به أن يكون مظهرا لحضارة ما؟

يقول: «وقف المجددون هذه الوقفة فلم يتردد أكثرهم فى الإجابة بأن ماضيهم هو الأب الطبيعى لحضارتهم وأدبهم، أما القلائل الذين قالوا بالأخذ بالحضارة الغربية فى كل صورها ومظاهرها على نحو

ما فعل الأتراك فلم يجدوا لأقوالهم إلا صدى ضعيفا زاده ضعفا ما قدمنا من فتور النفس الغربية بعد الحرب عن الأدب الكبير....... من هنا بدأت الصلة بين أنصار القديم وأنصار الجديد، فبدأ هؤلاء يقبلون على تراث السلف ينقبون فيه بالوسائل العلمية الحديثة، وبدأ أولئك يقرون هذا ويعتبرون الجهود التى يبذلها أنصار الحديث فى بعث الأدب الجاهلى وأدب عصور الإسلام المختلفة بعثا علميا دقيق التحقيق خطوة موفقة فى سبيل إعادة الحياة إلى حضارتنا الدفينة...»

ولكنه يتساءل مرة أخرى: «ما هى هذه الحضارة؟ أعربية هى أم إسلامية؟» ويقول: «كان المستشرقون أشد ما يكونون جذلا بتوجيهه» وقد وفد إلى الشرق طلاب وطالبات من الغرب «يحاولون – فيما يقولون تحقيق هذه المسألة... وأشعر بأننى فى حل من القول بأن هذه الطليعة الغربية متجهة إلى مثل هذا البحث ربما شابتها غايات سياسية تسوغ هذا الاعتقاد بأن المسألة لم تثر للبحث العلمى وحده. وسواء أصح اعتقادى هذا أم لم يصح، وسواء أكان المقصود إثارة الخلاف بين المسلمين وغير المسلمين من الذين يتكلمون العربية، أم كان المقصود به ألا تقرن إلى الإسلام حضارة ما، أم لم يكن المقصود هذا ولاذاك، وإنما المقصود البحث التاريخى النزيه – سواء أكان هذا أم ذاك فإنا نعتقد أن أية حضارة يجب لتقوم أن تتصل حتما بعنصر من الإيمان» ولا يرى أخيراً إلا أن بعث حضارة الشرق، لا يكون إلا بإحيائها على «طرائق العلم الغربية الحديثة»

وما يتسنى لنا أن نجده من طرائق أخرى فى علم الشرق وحضارته «وقد نتفق على الأقل معها».

وقد بدأ الدكتور هيكل هذا الطريق - كما رأينا - منذ وقت مبكر فاتجه إلى ماضى مصر «لأن الحديث ينطوى على شىء من القديم، بل على أكثره والقديم لايمكن أن يتصل بقاؤه إذا هو لم يتصل بالحديث ولم ينتشر فى أرجائه، أليس فخار الأمم بماضيها لايقل عن فخارها بحاضرها؟ ألسنا فى مصر نفاخر بالفراعنة وبالعصر الإسلامى أكثر مما نفاخر بالعصر الحديث؟».

بهذه الروح كما يقول «حاولت منذ سنين عدة أن أكشف عن بعض جوانب مصر القديمة وأن أسلكها سبيل الأدب القومى».

ولم يكن اختياره لعصر الفراعنة مقصودا لذاته، فقد بدا له أن «أجعل من بعض عصور مصر الإسلامية موضع هذه الدراسة» واستهوته الحروب الصليبية ولكنه نكص عنها خوف «مهاجمة عنيفة متأثرة فى ذلك بخصومة سياسية أو غير سياسية» إلى «ميدان لا يعنى بمهاجمة الباحث فيه أحد».

وبدأ تلك المحاولة الطريفة «فى تصوير حديث هؤلاء الآلهة مستمدين أخبارهم من مختلف مصادرها موازنين بينهم وبين آلهة الإغريق الذين ألهموا من فوق الأولمب حضارة أوربا الحاضرة».

وبين حين وآخر يشده الحاضر إليه ببعض القصص المصرى لانراه يشغل به كثيرا وكان ذلك فى ختام الثلاثينات، حين أصدر

كتابه «تراجم مصرية وغربية» ثم كتابه «ولدى» وأخيراً «ثورة الأدب» وهى الكتب الثلاثة التى يسفر فيها عن ملكاته وفكره الأصيل، فإذا كان قد قدم لنا من قبل «جان جاك روسو» فإنه لايكمله ولايمضى فيه إلى جزئه الثالث الذى وعد به، واكتفى من ذلك بنشر ما كان بين روسو وأسقف باريس فى السياسة الأسبوعية فى ١٠ فبراير ١٩٢٧، بعد صدور الجزء الثانى من مؤلفه هذا بأربع سنوات.

فإذا كنا نعدّ «جان جاك روسو» سيرة لكاتب غربى عظيم أقبل الدكتور هيكل على التأريخ له لأن فيه بعض روح الشرق، وإذا كان من بعد قد أقبل على كتابة سير من «كان لهم فى حياة مصر السياسية أثر ظاهر» ومن أحبهم «منذ زمن طويل حبا جما «فرأى أن يثبت» صورة من حياتهم هى الصورة الممتلئة بها نفسى منهم «فإننا نرى فى إقباله على التاريخ وعلى السير منه بنوع خاص، بعض ما يحرك وجدانه من حب وإعجاب يحمله على «إثبات صورة حياتهم» فلم تكن جاذبية التاريخ بقدر ما كانت الهواية وبقدر ما كان الحب ما حمله إلى ميدان السير التاريخية.

ولم يكن عسيراً على كاتب «زينب» أن يلج ميدان السيرة التاريخية، فالسيرة قصة حياة فرد ترك من الأثر فى الحياة ما جذب إليه التاريخ وما جذبه إلى ميدانه، وهى أحفل من التاريخ العام بالعواطف الزاخرة الجياشة، والأحاسيس النابضة لأنها تعرض من

سيرة الفرد لجوانب حياته المختلفة، حتى تتجلى مقومات شخصيته وتبرز معالم حياته لتفصح عن سرّ نبوغه وتفرده، إذ لا تحفل السير إلّا بكل نابغة فريد، والسيرة أكثر نبضا بالحياة من التاريخ ففيها نلمس الإنسان مباشرة، أما فى التاريخ فإننا نلمس الإنسان عن طريق الأحداث التاريخية العامة التى أحاطت به وبغيره.

وقد يبدو يسيراعلى الأديب القصاص أن يكتب سيرة تاريخية، إذا عكف على مصادرها، وإن كان من العسير أن يتحرر من لمسة الفن والتماسك الذى تفرضه «حبكة القصة» فيغرق فى الافتراض أو التخيل أو خلق المواقف التى تنأى به عن محراب التاريخ بوقائعه المقدسة، فالواقعة فى التاريخ مقدسة، فإذا حاول مؤرخ السيرة أن يكتب قصة تاريخية، بَعُد به المنطق التاريخى عن الحبكة القصصية، وغدت قصته صورة باهتة لواقع الحياة، وإن كان من اليسير أن يكتب قصة اجتماعية أو نفسية.

وأعظم مؤرخى السير هم الذين يملكون موهبة الأدب وملكة الفنان فمازالت السيرة قصة إنسانية تعج بالأحاسيس والانفعالات والمواقف والأحداث التى يقتنصها كاتب السيرة من حياة صاحبها ليضفى عليها الحيوية ويبعث فيها الحياة، بل إن التاريخ نفسه فى حاجة إلى قدرة الأديب على التعبير ولمسة الفنان على إبراز المأثرة فى أحداثه، وإلّا غدا تدوينا لوقائع مجردة حتى يخضع للتأريخ فيضفى عليه ملكة الفنان.

ولا ندرى إلى أى حد تتحكم الموهبة القصصية فى المؤرخ أو فى القصاص فتسوق كلا منهما إلى النهج الذى يرتضيه وتستوى عليه ملكاته، ويتفرد به مؤرخا أو قصاصا، وإن كان من الممكن أن يجمع بين الموهبتين فيكون مؤرخ سيرة وكاتب قصة، وإن كانت قدرة لا يتفرد بها إلا من أوفى على القمة من الثقافة وأوتى موهبة الفنان ولمسة الأديب ودقة الباحث وغلبة الأسلوب العلمى، وكان الدكتور هيكل ممن تفرد بالموهبتين فكان المؤرخ العالم والأديب الفنان»[1].

---

(١) انظر هيكل وحياة محمد للمؤلف. الأنجلو ١٩٦٩.

فى ميدان الفكر

حين بدأ الدكتور هيكل يكتب «حياة محمد» لم يكن ذلك انحرافا بفكره عن الطريق الذى سار فيه منذ البداية - كما حلا للبعض أن يدعى ذلك - حين نسبوا إليه أنه سلك طريقا غير طريق المجددين، فقد اجتازت مصر مرحلة المخاض العسير فى لقائها بالفكر الغربى. فحين أصابت الموجة الغربية عقول البعض من المصريين كانت أعنف مما تطيقه عقولهم وأصولهم الفكرية، فذهبوا إلى النقيض مما ذهب إليه الجامدون من رجال الدين، وأقبلوا على كتب «الغرب - كما يقول فى مقدمة «حياة محمد» يلتمسون فيها الحقيقة إيمانا منهم بأنهم لن يجدوها فى كتب المسلمين، وهم لم يفكروا فى كتب المسيحية والتاريخ المسيحى بطبيعة الحال، إنما فزعوا إلى كتب الفلسفة يتلمسون فى أسلوبها العلمى ريّ ما فى نفوسهم من ظمأ محرق للحقيقة، وفى منطقها ضياء للجذوة المقدسة الكمينة فى النفس الإنسانية، ووسيلة إلى الاتصال بالكون فى حقيقته العليا، وهم واجدون فى كتب الغرب سواء منها كتب الفلسفة وكتب الأدب

الفلسفى، وكتب الأدب نفسه الشيء الكثير مما يغرى الإنسان بالأخذ به لروعة أسلوبها ودقة منطقها، وما يظهر فيها من صدق القول وخالص التوجه إلى المعرفة ابتغاء الحق، لذلك انصرفت نفوسهم عن التفكير فى الأديان كلها، وفى الرسالة الإسلامية وصاحبها حرصا منهم على ألا تثور بينهم وبين الجمود معركة لاثقة لهم بالانتصار فيها».

ولعل هذا ما كان من أمر الدكتور هيكل، ولعله حين يدلى بهذا القول يصف نفسه وما ألم به من حذر وتهيب أن يطرق هذا الميدان، جزعًا من تهمة «الإلحاد والكفر والزندقة» وهى تهمة لم ينج منها الشيخ محمد عبده على جلال قدره «ولكنه ظل يتحسس هذا الطريق ويروده على حذر، فلم يزده إقباله على الفلسفة الغربية والفكر الغربى وأدب الغرب إلاّ إيمانا بالصلة التى تربط ماضى العالم الإسلامى بحاضره، ويدعو إلى إحياء «حضارة الشرق من جديد» وأن يقتحم أدبنا ماضينا «فكثيرا ما يسبق الأدب العلم فى الحضارات».

وقد أقبل – كما قلنا – على إحياء تاريخ مصر الفرعونية، دون تاريخها الإسلامى حذرا من الجامدين، ويخوض بفكره فى ميادين شتى، ولكنه حتى عام ١٩٣٣ يرى أنه لم يكتب شيئًا برغم اعتزازه «بزينب» و «جان جاك روسو» فيقول فى ملحق السياسة يونية ١٩٣٣:

«ثم ماذا تراني يا صديقي أنتجت، دعك من فصول تكتب في الصحف، فأنت أعرف الناس بتفاهة ما ينفق من مجهود في هذه الفصول، دعك من العمل في حزب سياسي فأنت أدرى الناس بالسياسة المصرية، ما هي وما مبلغ الجهد فيها دعك من هذين وانظر وإياي فيما أنتجت، إنه لا شيء أولا يكون شيئا، وأنا رجل بيني وبين الخامسة والأربعين شهور».

أكان الدكتور هيكل بهذا القول يرى أنه لم يكتب شيئاً جديرا بالبقاء والخلود؟ أم تراه يرى فيما كتب قاصرا عن بناء فكر مستقل لا يشاركه فيه أحد فيكون له فضل الريادة، أو رأى وقد بلغ هذا السن أنه لم يطرق بعد الميدان الجديد بقلمه يصول فيه ويجول، فاقتحم دون وجل ما طاف بخاطره ونكص عنه من قبل، لبعث حضارة هذا الشرق الإسلامي، لتكون زادا لحضارة إنسانية رفيعة «يتزاوج فيها العلم والإيمان» ويتاح فيها «للعالم الإسلامي بموقعه الجغرافي بين الشرق والغرب وبين المسيحية والديانات الآسيوية أن يمد يدًا إلى ناحية ويدا إلى الأخرى ليرتفع بهؤلاء وأولئك إلى ميادين الحضارة الصحيحة، الحضارة التي تدرك وحدة الوجود على وجهها الصحيح، الحضارة التي تبث في أنحاء الحياة بسمات السعادة الصحيحة وتضيئها بنور الحق الذي يقف محجوبا بحجب الزمان والمكان، الحضارة التي لا تعرف إسلاما لغير الله ولا تعرف للحرية حدودا ولا لحرية العقل قيودا، والتي تنير ظلمات العيش بالشفقة

والرحمة والإيثار وإطعام المسكين وابن السبيل والمؤاخاة بين الناس جميعا أيًا كانت أجناسهم وعقائدهم والمغفرة للمذنب والمحبة المنبثة فى أرجاء الكون كله والتى تندسّ اليوم إليها هموم المادة فتحيلها عداوة وحسدا وتقيمها كما تقيمها حضارة الغرب على أساس من حرب الطبقات».

يكتب الدكتور هيكل هذا الكلام فى ملحق السياسة فى ١٤ أكتوبر ١٩٣٣، وكان قد بدأ يكتب «حياة محمد» وكان قد استوى من قبل فى مقال عن «العقل والروح» - نشر فى السياسة الأسبوعية فى ١٨ يونية ١٩٢٩ - على أن «العلم التجريبى» لا يملك القدرة المطلقة «على حلّ كلّ ألغاز الكون والحلول بذلك فى نفس الجماعات محل الإيمان» ولم يعد هو نفسه يؤمن بذلك ما كان يؤمن به منها فى صدر شبابه.

لم يكن هذا الاتجاه الإسلامى، إذن، جديدا عليه، وإنما كان يحمل بذرته منذ البداية، ولم يكن لهذه البذرة أن تنمو وتزهر إلاّ حيثما يرد التربة ماؤها ويطيب لها المناخ، وقد ظل يسبر أغوار روحه ووجدانه وعقله حتى اهتدى طريقه، وكان قد خفى عنه سنوات - كما يقول فى تقديم «فى منزل الوحى».... ما سبقت الإشارة إليه، فى اتجاهه إلى التاريخ الإسلامى، فيقول إن:

«الفكرة الإسلامية المبنية على التوحيد فى الإيمان بالله تنزع فى ظلال حرية الفكر إلى وحدة الإنسانية، وحدة

أساسها الإخاء والمحبة، فالمؤمنون فى مشارق الأرض ومغاربها إخوة يتحابون بنور الله بينهم، وهم لذلك أمة واحدة تحيتها السلام وغايتها السلام، وهذه الفكرة الإسلامية تخالف ما يدعو إليه عالمنا الحاضر من تقديس القوميات وتصوير الأمم وحدات متنافسة يحكم السيف وتحكم أسباب الدمار بينها فيما تتنافس عليه، ولقد تأثرنا معشر أمم الشرق بهذه الفكرة القومية واندفعنا ننفخ فيها روح القوة نحسب أنّا قادرون بها وحدها على أن نعيد مجد آبائنا وأن نسترد ما غصب الغرب من حريتنا وما أهدر بذلك من كرامتنا الإنسانية. ولقد أنسانا بريق حضارة الغرب ما تنطوى هذه الفكرة القومية عليه من جراثيم فتاكة بالحضارة التى تقوم على أساسها وحدها، وزادنا ما خيّم علينا من سجن الجهل إمعانا فى هذا النسيان، على أن التوحيد الذى أضاء بنوره أرواح آبائنا قد أورثنا بفضل الله سلامة فى الفطرة هدتنا إلى تصور الخطر فيما يدعو الغرب إليه، وإلى أن أمة لا يتصل حاضرها بماضيها خليقة أن تضل السبيل، وإلى أن الأمة التى لا ماضى لها لا مستقبل لها، ثم كانت الهوة التى ازدادت عمقا بين سواد الأمم فى الشرق والدعوة إلى إغفال ماضينا والتوجه إلى وجهة الغرب بكل وجودنا، وكان النفور من جانب السواد عن الأخذ بحياة الغرب المعنوية مع حرصه على

نقل علومه وصناعاته، والحياة المعنوية هى قوام الوجود الإنسانى للأفراد والشعوب؛ لذلك لم يكن لنا مفر من العود إلى تاريخنا نلتمس فيه مقومات الحياة المعنوية لنخرج من جمودنا المذلّ ولنتقى الخطر الذى دفعت الفكرة القومية الغرب إليه فأدامت فيه «الخصومة بسبب الحياة المادية التى جعلها الغرب إلهه».

وحين اهتدى الدكتور هيكل المسار فى طريقه وقف بقلمه على الدعوة «إلى إحياء حضارتنا الشرقية...... وكم فى ماضينا من أرواح ذات سنا باهر قادرة بقوتها على أن تبعث الحضارة الإسلامية خلقا جديدا، كما بعث فلاسفة اليونان الحضارة الغربية الحديثة، ومحمد بن عبد الله هو النور الأول الذى استمدت منه هذه الأرواح ضياءها، وهو الشمس التى أمدت كل هذه الأقمار بسناها».

كان الطريق ظاهرا أمامه منذ البداية، ولكن المسالك فيه كانت عديدة، فاختارمنها مسلكا بعيدا رآه مليئا بالفتنة والسحر ورآه آمنا خاليا من العثرات ولكنه كان بعيدا جدا فلا يطرقه طارق، وكان يرى الطريق الآخر قريبا، وقد ظنه مليئا بالقتاد فنأى عنه، فلما رأى الغير يعدو عليه وينثر عليه الوحل ويقتنص الوراد منه، لم يرض أن يتركه لمقتنصيه وقد أوشك أن يغشى ظلامهم نوره.

وقد جاء هذا الغير مؤيدا بالاستعمار «بقصد القضاء على الروح المعنوية بالقضاء على حرية الرأى وحرية البحث ابتغاء الحقيقة...

وهذا الاستعمار يؤيد كذلك دعاة الجمود من المسلمين» وقد «أتاحت لى ظروف حياتى العملية أن أرى ذلك كله فى مختلف بلاد الشرق الإسلامى، بل فى البلاد الإسلامية كلها».

ووقع ما لابدّ أن يقع ليثيره ولا يترك له مجالا للتردد «ذلك أن نشاط المبشرين - كما يقول فى مذكراته السياسية - بالمسيحية ظهر فجأة فى ثوب مخوف. وتناقلت الصحف يومئذ أن الجامعة الأمريكية بالقاهرة هى مصدر هذه الدعايات التبشيرية، وأن بها أركان الحرب التى تنظم هذه الدعايات، وكان غريبا حقا هذا النشاط الذى أبداه المبشرون، والذى لم يسمع بمثله من عشرات السنين، فقد امتد هذا النشاط من القاهرة إلى بورسعيد وإلى غيرها من المدن والأقاليم، وقد تحدثت الصحف عن وسائل الإغراء التى يلجأ إليها المبشرون لحمل السذج على اعتناق المسيحية ولتنصير الأطفال الأبرياء من أبناء المسلمين الفقراء، وارتاع الناس لهذه الحملة التبشيرية أيما ارتياع، وجعلوا ينظرون إلى موقف الحكومة منها نظرة كلها عدم الرضا، وتألفت جمعية لمقاومة هذا التبشير كانت تجتمع فى دار الشبان المسلمين، وكنت من أعضائها، وكان من أعضائها كذلك الشيخ محمد مصطفى المراغى الذى كان شيخا للأزهر فى سنة ١٩٢٨ فلما لم يستطع أن ينفذ آراءه فى إصلاح الأزهر استقال من مشيخته، وكان انضمامه إلى هذه الجمعية التى تقاوم التبشير مما زادها قوة فى نظر الرأى العام...»

وقاد الدكتور هيكل على صفحات السياسة حملة عنيفة لمقاومة

التبشير «لا من حيث أن هذه المقاومة تغذى حركة المعارضة لصدقى باشا ووزارته، ولكن اقتناعا منى بأن هذه الحركة يقصد بها إلى إضعاف ما فى النفوس من ثقة بدين الدولة، ولما تنطوى عليه من قصد سياسى هو إضعاف معنويات الشعب بإضعاف عقيدته، وإن لم يبلغ هذا الإضعاف حدّ ارتداده عن دينه إلى دين آخر».

ومن خطط الاستعمار أن يتخذ من الأزمات السياسية والاقتصادية وسيلة لزلزلة عقيدة الشعب فى قيمه وأعرافه وتقاليده وفوق ذلك فى عقيدته، وقد رأى دعاة التبشير فى نفور الشعب من وزارة صدقى باشا أوائل الثلاثينيات ما ييسر لهم دعوتهم.

وقد رأى الدكتور هيكل فى حركة التبشير هذه، فضلا عن مرماها وآثارها، عدوانا على حرية الرأى التى ظل طوال حياته يؤمن بها ويدافع عنها «فإغراء الناس بالوسائل المادية لحملهم على تغيير مذهبهم أو عقيدتهم أو رأيهم، هو محاربة دنيئة لهذه الحرية، وهو استغلال للضعف الإنسانى كاستغلال المرابى حاجة مدينه ليقرضه بالربا الفاحش، والتبشير، فضلا عن هذا، مناف للخلق مادام يتم فى الظلام ولا يصارح القائم به الناس برأيه ليناقشوه هذا الرأى، وليبينوا ما فيه من زيف أو فساد».

وكان من عنف هذه الحملة التى قادها على صفحات السياسة، وحمل فيها إدارة الأمن العام الأوربى فى وزارة الداخلية المصرية تبعتها، أن أقيمت عليه وعلى «حفنى بك محمود» رئيس تحرير

السياسة، الدعوى الجنائية «بتهمة أننا نحرض أهل الأديان المختلفة بعضهم ضد بعض» وأحيل الاثنان إلى محكمة الجنايات، وصدر الحكم عليهما «بغرامة سبعين جنيها يدفعها كل منا»[1] حفني بك بوصفه رئيسا للتحرير والدكتور هيكل بوصفه مديرا للتحرير.

إلا أن الحملة التى قادها ضد التبشير والمبشرين لم تقف به عند هذا الحد، فإذا كان دور الصحفى قد انتهى، فقد بقى دور المفكر، وقد رأى الطريقة المثلى لذلك «أن أبحث حياة صاحب الرسالة الإسلامية ومبادئه بحثًا علميا وأن أعرضه على الناس عرضا يشترك فى تقديره المسلم وغير المسلم» وكان سفره الرائع «حياة محمد».

حياة محمد:

لم يكن غريبا من الدكتور هيكل وقد رأى أن يبحث «حياة صاحب الرسالة الإسلامية ومبادئه» بحثا علميا، أن يسعى – ككل باحث – وراء المصادر التى تعينه فى بحثه «وإنى لأذكر فى هذه المناسبة يوما دعانى فيه صديقنا الحر الدستورى العريق عبد الحليم

---

(١) كان الدكتور هيكل قد حيل بينه وبين رياسة تحرير السياسة وفقا لقانون المطبوعات الذى أصدره صدقى باشا، ويقضى بأن يحرم من رياسة التحرير من صدر ضده حكمان بالإدانة، وكان قد صدر ضده حكمان عن مقالين نشرهما بالسياسة، أحد الحكمين بغرامة خمسة جنيهات والآخر بغرامة عشرة جنيهات، وحرم بذلك من رياسة تحرير السياسة.

بك العلايلى لتناول طعام الغداء فى داره، وكان محمد محمود باشا ضيف الشرف فى هذا الغداء، وكان الشاعر الكبير حافظ بك إبراهيم من حضوره، ولقد تناولنا فى أثناء الغداء وبعده حديث الحملة التبشيرية، وسألت أنا الحاضرين عما يعرفونه من كتب أوربية كتبت عن حياة صاحب الرسالة، وذكر أحدهم كتاب الكاتب الفرنسى إميل درمنجهم عن - حياة محمد - ولم ألبث حين خرجت أن اقتنيته، وعكفت على مطالعته حتى فرغت منه، ثم بدأت أنشر عنه بحثا فى السياسة الأسبوعية، وكانت تظهر إبان تعطيل السياسة اليومية، فلما ظهر العدد الذى نشر فيه أول مقال عن هذا البحث تخاطفه الناس تخاطفا، حتى لقد طلب الباعة ضعف العدد الذى طبعناه».

وكان أن ألقى رداء التهيب الذى أمسك به طويلا عن ولوج ميدان التاريخ الإسلامى فنأى عنه طويلا، برغم أننا فى مصر «نفاخر بالفراعنة وبالعصر الإسلامى أكثر مما نفاخر بالعصر الحديث» وبرغم ما كان يؤمن به من اتصال الحديث بالقديم، وإنه لا يتصور «حديثا لا يتصل بالقديم الذى أثمره» أو نتصور قديما لا يتطور مع الحديث وينضم إليه فإذا اتصل القديم والحديث وتضامنا نشأت عن ذلك حيوية قوية وروح معنوية نشيطة هى التى تقوم أساسا لكل حضارة من الحضارات وبدونها تتداعى الحضارة وتنهار، ويضطر أهلها إلى استعارة حضارة غيرهم والعيش فى كنفها».

وحمله ما لقيه مقاله عن كتاب إميل درمنجهم من إقبال على

دراسة حياة صاحب الرسالة الإسلامية، وإن بقى التهيب والحذر يلمان به «خيفة ما قد يقوم به أنصار الجمود والمؤمنون بالخرافات من ضجة تفسد عليّ ما أريد، لكن ما لقيت من إقبال وتشجيع من طائفة شيوخ المعاهد، وما أبدى لى بعضهم من ملاحظات تدل على العناية بالبحث الذى أقوم به، جعلنى أفكر تفكيرا جديا فى إنفاذ ما اعتزمت من كتابة (حياة محمد) على الطريقة العلمية الصحيحة كتابة مفصلة».

ولم يكن الدكتور هيكل بعيدا عن ميدان التاريخ الإسلامى منذ البداية،،فقد قرأ «كارليل» فى مطلع صباه وقبل أن يرحل إلى باريس لنيل الدكتوراه، وكارليل ممن كتبوا عن نبى الإسلام وسلكه على القمة من أبطال التاريخ، وقد استهوته الحروب الصليبية من بين ما استهواه من تاريخ مصر – كما سبق القول – كما كان لكتابات الشيخ محمد عبده وأسلوبه تأثيرهما عليه فى بواكير صباه، حتى اتخذ مقالاته مثالا لما يكتب.

فإذا كان قد نأى عن الميدان كاتبا فإنه لم ينأ عنه قارئا أو مفكرا، وكان يرى بما «أتاحت لى ظروف حياتى العملية فى مختلف بلاد الشرق الإسلامى... تضافر الاستعمار على تأييد ما دسّ على الإسلام مما يبرأ الإسلام منه، وعلى سيرة الرسول من خرافات لا يسيغها العقل، ولا يقبلها الذوق، وعلى تأييد الطاعنين على الإسلام وعلى محمد بما دسّ على الإسلام وعلى سيرة الرسول».

وإذا كان قد اقترب من التاريخ الإسلامى قارئا، فإنه حتى ذلك الوقت لم يكن قد اقترب منه باحثا، والبحث إذا احتاج إلى منهج نراه قد وعاه وألم به وتأثر به على الطريقة العلمية الحديثة «فهذه الطريقة العلمية – كما يقول الشيخ المراغى فى تعريفه بكتاب «حياة محمد» – تقتضيك إذا أردت بحثا أن تمحو من نفسك كل رأى وكل عقيدة سابقة فى هذا البحث وأن تبدأ بالملاحظة والتجربة ثم بالموازنة والترتيب ثم بالاستنباط القائم على هذه المقدمات العلمية، فإذا وصلت إلى نتيجة من ذلك كله كانت نتيجة علمية خاضعة بطبيعة الحال للبحث والتمحيص، ولكنها تظل علمية ما لم يثبت البحث العلمى تسرب الخطأ إلى ناحية من نواحيها، وهذه الطريقة العلمية هى أسمى ما وصلت إليه الإنسانية فى سبيل تحرير الفكر، وها هى ذى مع ذلك طريقة محمد وأساس دعوته».

لم يكن غريبا إذن أن يسأل الدكتور هيكل غيره «عما يعرفونه من كتب أوربية كتبت عن حياة صاحب الرسالة» وأن يعود إلى ما يعرف من كتب السيرة والمغازى وإلى ما كتب المستشرقون وغيرهم، وأن يجد العون صادقا ممن يرجع إليهم، أو يستعيرهم ما لديهم من كتب تتصل ببحثه «وجدت ذلك غير مرة عند الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى، ووجدته عند صديقى الضليع جعفر باشا والى الذى أعارنى عدة كتب كصحيح مسلم وتواريخ مكة، ودلّنى على غير مسألة من المسائل، وهدانى إلى مواضعها، وقد أعارنى صديقى الأستاذ مكرم عبيد كتاب المستشرق وليم موير

- حياة محمد - وكتاب الأب لامنس - الإسلام - هذا إلى ما وجدت من عون فى مؤلفات المعاصرين القيمة ككتاب - فجر الإسلام - للأستاذ أحمد أمين، و - قصص الأنبياء - للأستاذ عبد الوهاب النجار، و - فى الأدب الجاهلى - للدكتور طه حسين - و «اليهود فى بلاد العرب - لإسرائيل ولفنسن، وغير هذه من كتب المعاصرين كثير»[1].

---

(١) أعد الباحث الأمريكى «تشارلس دانيل سمث - رسالته للدكتوراه بجامعة ميتشجان عام ١٩٦٨ عن «محمد حسين هيكل: سيرته السياسية والفكرية» وأفرد أكثر من ثلث البحث لكتاب «حياة محمد» وكان الختام عنه أيضا على غير المألوف فى الرسائل الجامعية حيث تكون الخاتمة استقراء لنتائج البحث، وكأنه لا يبغى غير منافسة كتاب «حياة محمد» وقد تنكب فى بحثه الدقة التى يتطلبها البحث العلمى والموضوعية التى تحكم نزاهة البحث، فلجّ فى التمويه، واقتناص الحقائق مبتورة، وافتعل من الأسانيد ما ينقضه الواقع الفعلى الصحيح، وتحيّف على الوقائع، وغيّر فى الألفاظ سندًا لرأيه، من ذلك مثلا ما نقله عن الأستاذ أحمد هيكل فى تقديمه لكتب أبيه «عثمان ابن عفان بين الخلافة والملك» حين كتب عن «اعتقاد الدكتور هيكل (أبيه) بأن (الخلاف) فى ذاته كان ضرره على المسلمين أضعاف نفعه إن كان له نفع على الإطلاق، إذ أوردها دانيل مترجمة فى العبارة التالية»:

In the Introduction Ahmad Hykal stated that his father belieued that the harmful affects of the caliphate were for mare numerous than its benefits. if indeed there were any benesits at all (p. q)

ولا نرى أن الباحث قد خلط بين (الخلاف) و(الخلافة) فالقارئ الأجنبى سيأخذها قضية مسلمة، أما القارئ العربى فقد يلتمس له العذر، وتلك براعة فى التمويه=

= ومن أمثلة تحيفه ما أنكره على الدكتور هيكل من رجوعه بنفسه إلى المصادر العربية فى كتابه «حياة محمد» فيقول: «وهناك بعض الشك حقا فى أن يكون الدكتور هيكل قد بحث هذه المصادر بنفسه -

"Indead there is same doubt as to whetber Haykal personally diduch research into these materials : his former secretary DR Sayyid Nawful has stated that he did most of this inuestigation and corrected mucl of Haykal is material where he refened to Muslim lexts"

وقد قرر سكرتيره السابق د. سيد نوفل أنه هو الذى قام بأكثر هذه البحوث كما قام بتصحيح المادة التى كان هيكل يرجع فيها إلى النصوص الإسلامية» ويقول فى الهامش إنه «فى لقاء مع الدكتور سيد نوفل الأمين المساعد للجامعة العربية فى ١٣ يوليه ١٩٦٥، وكان د. نوفل سكرتيرا لهيكل فى الفترة من ١٩٣٤ إلى ١٩٥٠... وقد أجاب عن سؤال عن غرض هيكل من كتابه «حياة محمد» بأن هيكل رأى فى تأليف كتاب عن محمد وسموه على المسيح وسيلة لضرب حكومة صدقى وتعزيز موقف الأحرار، وأخيرا بنفس الصورة بالنسبة للوفد» وقد أراد دانيل أن يعزز رأى سيد نوفل فذكر عنه فى نفس الهامش ما يلى:

"He holds an advameed deqree in arahic literatvre and interestingly evougl, was a vart – tume teacher of hre - Islamic literature at al - A Zhar 1938 - 1942"

ويحرز مؤهلا متقدما فى الأدب العربى ما يؤهله بدرجة كافية ليعمل لبعض الوقت مدرسا لما قبل الأدب الإسلامى فى الأزهر من سنة ١٩٣٨ إلى سنة ١٩٤٢» ولا ندرى=

وصدر «حياة محمد» فى طبعته الأولى عام ١٩٣٥ بعد أن نشر فصوله تباعا فى السياسة الأسبوعية على مدى عامين، وطبع منه عشرة آلاف نسخة نفدت جميعا بعد ثلاثة أشهر من صدوره، ولعلها أول مرة يطبع مثل هذا العدد وتنفد طبعته سريعا لكتاب ينشر باللغة العربية «موضوع الكتاب - كما يقول الدكتور هيكل فى تقديم الطبعة الثانية - هو السبب الأول فى الإقبال عليه لا ريب، ولعل الطريقة التى عولج بها الموضوع كانت ذات أثر فى الإقبال عليه كذلك».

= أهو ادعاء على الدكتور نوفل، أو أنه لعجزه عن الإلمام باللغة الإنجليزية قد أخطأ التعبير. فإننا نعلم جميعا أن الأستاذ سيد نوفل لم يعمل سكرتيرا للدكتور هيكل إلّا بعد توليه وزارة المعارف عام ١٩٣٨، وكان يعمل قبل ذلك بأشهر محررا بالسياسة الأسبوعية، حين تعذر عليه أن يجد فى غيرها مكانا، وأنه حين كتب الدكتور هيكل - حياة محمد - كان مايزال طالبا بالمرحلة الثانوية بمعهد الزقازيق الدينى، وأنه تخرج فى كلية الآداب عام ١٩٣٥ وكان قد قبل بها مع من قبلهم الدكتور طه حسين من طلاب دار العلوم والأزهر بقسم اللغة العربية وأعدت لهم دراسة خاصة لتعلم اللغة الإنجليزية - وحصل على درجتى الماجستير والدكتوراه بعد زملائه بوقت طويل أثناء عمله سكرتيرا لهيكل باشا وزير المعارف والرئيس الأعلى للجامعة حتى انتقل معه إلى مجلس الشيوخ، وكل ما يرمى إليه «دانيل» من بحثه لأمر فى نفسه، أن يثبت أن الدكتور هيكل كتب «حياة محمد» لدوافع سياسية، وأن ثقافته الإسلامية لا تمكنه من كتابته، واستشهد على ذلك بالدكتور نوفل، ولم يكن الدكتور نوفل فى حياته الدراسية سواء بالأزهر أم بالجامعة ممن شارك فى نشاط الطلاب الحزبى أو السياسى.

ولا أرى بى حاجة إلى تناول منهج الدكتور هيكل العلمى فى عرضه لحياة محمد، وقد تناولته فى بحث كامل نشر بمجلة «تراث الإنسانية» عام ١٩٦٧ ثم أصدرت عنه كتابًا مستقلا بعنوان «هيكل وحياة محمد» منهج فى دراسة التاريخ الإسلامى عام ١٩٦٩ تناولت فيه بالإضافة إلى منهجه فى كتابة سيرة النبى المعظم ﷺ، المدرسة الحديثة للتأريخ الإسلامى فى القرن الأخير، على يد المؤرخ العظيم محمد عبد الله عنان، وفيلسوف الدراسات الإسلامية الكبير عباس محمود العقاد.

ولم أعرض لما نسب إليه من ردّة إلى «الرجعية وكان فى طليعة المجددين» اكتفاء منى بأن التيار الإسلامى قد شدّ كل المجددين إليه، بعد أن راده الدكتور هيكل تلك الريادة المتألقة، ولكن بقى الغلاة من المحافظين والمجددين على السواء وكلاهما يدفعه التعصب أو حاجة فى النفس إلى التميز والبروز حين يستوى الناس على رؤية بينة من التوافق بين القديم والجديد، وقد بدا هذا التوافق فى الفكر المصرى خلال الثلاثينيات بعد فترة اللقاء العسير بين الفكر الشرقى والفكر الغربى منذ رفاعة الطهطاوى حتى لطفى السيد، وأخذت آثاره تفصح عن نفسها بعد عودة المبعوثين المصريين الذين نهلوا من علم الغرب «سواء منهم من أوفدتهم الجامعة ومن أوفدتهم الحكومة من بعدها ومن ذهبوا يتمون دراستهم العالية» حين ظفروا بالقديم، وجروا إلى ناحيتهم «حراس حصونه حتى كادوا يسلمون إلى المجددين مفاتيحها وقد رأى المجددون أن «ماضيهم هو الأب

الطبيعي لحضارتهم ولأدبهم، أما القلائل الذين قالوا بالأخذ بالحضارة الغربية في كل مظاهرها وصورها على نحو مافعل الأتراك فلم يجدوا لأقوالهم إلا صدى ضعيفاً».

وقد بقيت هذه القلة التي يشير إليها تلوك الفكر الغربي مبهورة بحضارة الغرب في ظاهرها دون جوهرها ونأى بها هذا البهر عن تراث ماض عريق فلم تبحر فيه وظلت في عماء عنه وعما فيه من قدرة.

وإلى جانب هذه القلة من غلاة المجددين، بقيت قلة أخرى من أنصار القديم جمدوا عند صور متخاذلة من الماضي لا تفصح عن جوهر الحضارة الإسلامية حين استقبلت حضارة الهند والفرس واليونان ومصر بفكر متفتح وعقل نير فكانت تلك الحضارة التي ازدان بها مايسمى بالعصر الوسيط حين كان الإظلام يطبق على العقل الأوربي.

وقد واجه الدكتور هيكل بعد تأليف «حياة محمد» حملة من هؤلاء وأولئك على السواء، وقد عجب من مغمز «غمزوني به بعد تأليف كتابي – حياة محمد– حَسِب هؤلاء أنني انقلبت بكتابة السيرة رجعيا، وكنت عندهم قبلها في طليعة المجددين» كما غمزه آخرون «بنقيضه، وزعموني خارجاً على الإجماع والتمسوا الحجة لتأييد رأيهم، وليس يستقيم في المنطق أن يغمزني هؤلاء وأولئك».

ومن قبيل ذلك ماوراه العقاد عن بعض ما أغراه بالكتابة عن

«عبقرية محمد» أنهم كانوا جماعة يتذاكرون فصلا كتبه توماس كارليل عن «النبى محمد عليه الصلاة والسلام» وجعله نموذج البطولة النبوية بين أبطال العالم الذين اختارهم للوصف والتدليل» وبين هم يتذاكرون «آراءه وموضع ثنائه على النبى، إذ بدرت من أحد الحاضرين الغرباء عن الرهط كلمة نابية غضبنا لها واستنكرناها لما فيها من سوء الأدب وسوء الذوق وسوء الطوية، وكان الفتى الذى بدرت منه الكلمة متحذلقًا يتظاهر بالمعرفة، ويحسب أن التطاول على الأنبياء من لوازم الاطلاع على الفلسفة والعلوم الحديثة، فكان مما قاله عن النبى والزواج وشيء عن البطولة فحواه أن بطولة محمد هى بطولة سيف ودماء!».

«قلت: ويحك ماسوغ أحد السيف كما سوغته أنت بهذه القولة النابية: وقال صديقنا المازنى! بل السيف أكرم من هذا، وإنما سوّغ صاحبنا شيئًا آخر استحقه، وأشار إلى قدمه».

«وارتفعت لهجة النقاش هنيهة ثم هدأت بخروج الفتى صاحب الكلمة من الندى، واعتذاره قبل خروجه بتفسير كلامه على معنى مقبول، أو خيل إليه أنه مقبول وتساءلنا مابالنا نقنع بتمجيد كارليل للنبى، وهو كاتب غربى لا يفهمه، ولا يعرف الإسلام كما نعرفه، ثم سألنى بعض الإخوان: ما بالك أنت يافلان لا تضع لكتاب العربية كتابا عن «محمد» على النمط الحديث. قلت: أفعل وأرجو أن يتم ذلك فى وقت قريب»

وكان ذلك قبل ثلاثين سنة- كما يقول- من ظهور «عبقرية محمد» خلال الحرب العالمية الثانية».

ولم يكن الفكر الإسلامى بعيدًا عن هؤلاء المجددين منذ البداية، وإن شغلوا عنه بحركة البعث القومى التى ألهبت وجدان المصريين بعد ثورة ١٩١٩، وإجماع المصريين على زعامة سعد زغلول حين أخذ يلهب عواطفهم ويبعث فيهم روح مصر من رقادها. كما شغلوا عنه بالصراع الحزبى حين ذهب الكتاب أشتاتا بين مؤيد ومعارض للتيارات الحزبية السائدة فإذا ولجوا ميدان الأدب العربى شغلوا بتحريره مما ران عليه من ركام البوار الذى قعد به عن التفتح والانطلاق، حتى إذا ضاقت الفجوة بينهم وبين المحافظين وآن لهم أن يبدعوا جديدًا وجدوا فى الفكر الإسلامى ميادين رحبة للبعث والانطلاق، حتى لنستطيع أن نسمى تلك الفترة من تاريخ الأدب العربى الحديث بفترة البعث والإحياء، كما كان إحياء الأدب الكلاسيكى بشيرًا بالنهضة الأوربية، وكان إقبال الدكتور طه حسين وإقبال العقاد على البحث فى ثنايا الأدب العربى: الأول فى «حديث الأربعاء» والثانى فى «ساعات بين الكتب» فلما خاضوا بحار التاريخ الإسلامى استطاعوا أن يبدعوا فيه جديدا، وعدوا مرحلة الإحياء إلى مرحلة البعث والإبداع.

وكان الدكتور هيكل أقلهم إقبالاً على الأدب العربى، فقد راح ينشد التجديد منذ البداية، بإبداع أدب مصرى استوحاه من تاريخ

الفراعنة، حتى اهتدى بعد جولة صاخبة إلى أن اهتدى طريقه إلى الفكر الإسلامى وتاريخ الإسلام فى مبعثه، يعبّ منه ما يشاء، فلما كتب «حياة محمد» رأى من الإقبال عليه مازاده إيماناً باتجاهه الجديد، ورأى صاحباه العقاد وطه حسين ألّا يسبقهما إلى ميدان حافل ينفرد به وحده فأقبلا عليه يعبان من بحره الزاخر، ويغترفان منه ما شاء لهما الفكر والمزاج العقلى، فضلاً عن الطموح والإيثار وتفتح الفكر الإسلامى على أيديهم وغدا الميدان فسيحًا لكل وارد على ثقة ويقين.

وتفرد الدكتور هيكل بين رفاقه بمنهج البحث التاريخى فأقبل على كتابة «السيرة النبوية» إقبال مؤرخ باحث، يزن الواقعة التاريخية ويستوفيها ويصل منها إلى الحقيقة الناصعة نقية من كل زيف دسّ عليها من «إسرائيليات كثيرة» و« أحاديث مكذوبة» وأقوال للمستشرقين يعرفون زيفها «وتراهم مع ذلك لا يأبون تناسيها ليقرروا أمورا يعتبرونها صحيحة مع أن أقل التمحيص ينفيها، من ذلك مسألة الغرانيق، ومسألة زيد وزينب، ومسألة أزواج النبى، مما أتيح لى امتحانه وتمحيصه فى هذا الكتاب».

فى رحاب الفكر الإسلامى:

ويشده التأريخ لتلك الفترة الأولى من مبعث التاريخ الإسلامى الباهر، إلى دراسة مانجم عنها فى السياسة والحكم، وقد «جال بخاطرى مذ فرغت من كتابى حياة محمد – وفى منزل الوحى – أن :

أقوم بدراسات فى تاريخ هذه الإمبراطورية الإسلامية وفى أسباب عظمتها وانحلالها.. وأغرانى فى هذا الأمر أن الإمبراطورية الإسلامية كانت أثرا لتعاليم النبى العربى وسننه، أما وقد درست حياته ﷺ، ورأيت نتائج هذه الدراسة جديرة بأن تهدى الإنسانية طريقها إلى الحضارة التى تنشدها، فإن فى دراسة هذه الإمبراطورية وأطوارها مايزيدنا قدرًا للتأسى بالرسول وتعاليمه، ومايبسر لنا حظا جديدًا من العلم بهذه الحياة الباهرة الجلال يزيد العلماء اقتناعًا بما دعوت إليه من إمعان البحث فيما تنطوى عليه من حقائق نفسية وأخرى روحية مايزال العلم يقف بوسائله حائرًا دونها، لا يستطيع أن يثبتها بأدلته، ولا يستطيع مع ذلك أن ينفيها، وهى من بعد قوام سعادة الإنسان فى الحياة ومقوم سلوكه فيها».

ويعود إلى ماكان يلم بفكره منذ البداية، وإلى مارددته كتاباته فى كل مناسبة من صلة الماضى بالحاضر، فيقول عما أغراه بالمضى فى التأريخ لتلك الفترة «ما أعتقده من أن معرفة الماضى هى وحدها التى تطوع لنا تصوير المستقبل وتوجيه جهودنا أثناءه إلى الغاية الجديرة بالإنسانية، فالماضى والحاضر والمستقبل وحده لا سبيل إلى انفصامها، ومعرفة الماضى هى وسيلتنا لتشخيص الحاضر ولتنظيم المستقبل، كما أن معرفة الطبيب ماضى مريضه خير وسائل التشخيص والعلاج.... وإنى لأفكر فى هذه الأمور وفيما يتصل بها إذ رغب إلى جماعة ممن أبدوا الرضا عن – حياة محمد – أن أتناول حياة خلفائه الأولين بالبحث، وأن أفرد لطائفة من أبطال المسلمين فى

العهد الأول تراجم مستفيضة أسجل فى كل واحدة منها سيرة واحد من هؤلاء الأبطال، ولئن أرضى مطلب هؤلاء الأصحاب نفسى، وغلق رضاى عنها، لقد أشفقت عليها مما طلبوا، فهو أمر يقصر دون إتمامه الجهد، وتنوء بإحسانه جماعة متضافرة».

ويكتب الدكتور هيكل «الصديق أبو بكر» وتصدر طبعته الأولى عام ١٩٤٢ بعد صدور «حياة محمد» بسبع سنوات، وبعد «فى منزل الوحى» بخمس سنوات لا نرى خلالها أنه كتب شيئًا ما، فما أن صدر «فى منزل الوحى» عام ١٩٣٧، حتى شغلته الوزارة عن الكتابة، وكم تجنى المناصب على أرباب الفكر، فلما ترك الوزارة فى فبراير ١٩٤٢، أصدر «الصديق أبو بكر» فى نفس السنة، وبعدها بسنتين أصدر الجزء الأول من «الفاروق عمر» عام ١٩٤٤. وأعقبه الجزء الثانى عام ١٩٤٥، ثم تشغله الوزارة ورئاسة مجلس الشيوخ مرة أخرى، ولعله قد وجد من الفراغ خلال رياسته لمجلس الشيوخ فى الفترة من سنة ١٩٤٥ إلى سنة ١٩٥٠ ليبدأ فى كتابة مذكراته السياسية - كما يقول سنة ١٩٤٨ - ولعله كتب معظمها بعد أن ترك رياسة مجلس الشيوخ فى يونية ١٩٥٠، إذ لم يصدر الجزء الأول منها إلا عام ١٩٥١، وصدر الجزء الثانى عام ١٩٥٣، وكان قد تفرغ للكتابة بعد سقوط النظام القديم وقيام الحكم العسكرى.

وفى تلك الفترة ما بين عام ١٩٥٠ وعام ١٩٥٦ حين اختاره الله لجواره يخصب إنتاجه الفكرى فيكمل كتابة مذكراته السياسية وإن

لم يتم ما أراده منها، فصدر الجزء الثالث منها بعد وفاته غير واف بما انتواه، كما صدر «عثمان بن عفان» ولما يكمله، وإن لم يقف عن الكتابة، ولم يخبُ نشاطه الفكرى، ففى هذه السنوات الست الأخيرة من حياته يكتب «هكذا خلقت» قصة طويلة، كما يكتب «قصص مصرية» غير ما كانت تنشره صحيفة الأخبار من فصول أسبوعية تستكتبه إياها، ودعته «حكومة الهند لأسافر إلى عاصمتها نيودلهى لأشترك فى ندوة تعقد هناك بين ٥ و١٧ يناير ١٩٥٣ للبحث فيما كان لتعاليم المهاتما غاندى ووسائله فى تنفيذها من أثر فى إقرار السلام وفض المنازعات بين الشعوب.. وتركت الهند عائدًا إلى مصر فى الثالث من فبراير، فمررت ببغداد، ثم بلغت القاهرة فى الثامن من فبراير ١٩٥٣، وما كدت أتم كتابة فصل عن - غاندى والسلام - وأبعث به إلى وزارة المعارف بالهند إجابة لطلبها، حتى دُعيت إلى حلب ألقى بها محاضرة عن - الحياة الفكرية وأثرها فى حياة الأمم - وقضيت بحلب ودمشق الأسبوع الأخير من أبريل، وعدت إلى مصر فى الثالث من مايو».

وكان يود أن يكون ختام الجزء الثانى من مذكراته السياسية فصلاً يلتمس فيه «العبرة مما حدث قبيل الحرب العالمية الثانية وفى أثنائها وفى أعقابها، ولوجدت فى ذلك مادة لفصل ممتع، وما بالك بسلام عالمى نظمته معاهدة فرساى على أثر الحرب العالمية الأولى، فإذا التنظيم للسلام يحمل فى طياته جراثيم الحرب العالمية الثانية، وإذا هذه الحرب الثانية أشد فتكًا وتدميرًا، وإذا جهاد مصر فى سبيل

حريتها واستقلالها وما انتهى إليه من معاهدة التحالف مع إنجلترا فى سنة ١٩٣٦ يقلب مصر قاعدة حربية لا لإنجلترا وحدها، بل لها ولحلفائها جميعًا، ثم إذا حليفتنا إنجلترا تتدخل فى شئوننا الداخلية تدخلاً مسلحًا وتحاصر قصر الملك السابق وتهدد بعزله ونفيه، ثم إذا بالديكتاتورية الإيطالية تنهار، وكأن ما أقامه موسوليني خلال عشرين سنة من جيوش وبواخر يحاول بها أن يضع يده على البحر الأبيض ليصبح بحيرة رومانية، كما كان فى عهد الإمبراطورية الرومانية القديمة لا يزيد على أنه بناء من الرمل، أو قصور من الورق، وإذا بالديكتاتورية الألمانية تنهار هى الأخرى بعد أن اعتدّت بقواتها المسلحة اعتدادا جعل الناس فى مشارق الأرض ومغاربها يتوهمون أنها لا تقهر».

«لقد كان هذا كله وما إليه من أطوار الحرب وما ابتكره العقل والعلم الإنسانى فى أثنائها من آلات الدمار، انتهت إلى تفتيت الذرة وإلى القنبلة الذرية موضع لعبرة أى عبرة ثم كان فى أطوار الحياة فى مصر نفسها موضع لعبرة لا يقل تبينها لأولى البصائر والأبصار».

وكان يودّ أن يفرد جزءًا كاملاً من مذكراته السياسية للفترة من سنة ١٩٤٦ بعد استقالة وزارة النقراشى الأولى أوائل سنة ١٩٤٦ إلى أن وقع الانقلاب العسكرى فى ٢٣ يولية ١٩٥٢ «وهى ست سنوات ونصف السنة.. فما وقع فى أثنائها من الحوادث فى مصر جسيمة غاية الجسامة ولا أحسبنى أبالغ إذا أنا قلت إنه يزيد فى

جسامته على كل ما وقع قبله، فهذه الأشهر الثمانون كانت أشهر ثورة فكرية وقلق اجتماعى واضطراب نفسى قل أن رأت مصر مثله فى تاريخها القومى الحديث.. ولذا كانت هذه الست سنوات ونصف السنة بحاجة إلى جزء كامل من هذه المذكرات، وأنا الآن أعد هذا الجزء وأرجو أن يوفقنى الله إلى إتمامه، لكننى آثرت أن أوجز صورة ما حدث فى هذه السنوات فى الفصل الأخير من هذا الجزء الثانى لتكمل لقارئه صورة من عهد فاروق من بدئه إلى نهايته».

ولم يكتب هذا الفصل الذى أراده تفصيلاً لأحداث جسيمة تناوشت مصر فى فترة دقيقة من فترات تاريخها الحافل، ولم يكتب عن هذه السنوات الست كما كان يأمل، وصدر الجزء الثالث بعد امد بمسائل لم تكن مما أشار إليه، ولعلها فصول كتبت منفصلة بعضها عن بعض، أو أنها بعض ما كان ينوى أن يضمنه الجزء الثالث، وإن كانت بعيدة عما أشار إليه، تفصيلاً لأحداث ثمانين شهرًا لعلها بما شابها من ثورة فكرية تعدّ من أهم صفحات التاريخ التى تبدو من خلال الأحداث، ولكنها تغيب على غير المفكر، كما كان يود أن يكتب عن قيام جامعة الدول العربية وما كان أجدره فصلاً يكتبه الدكتور هيكل السياسى والفقيه والمفكر الإسلامى، وأن يكتب عن إدارة السودان أو ما جرى على تسميته حينذاك بسودنة الوظائف، وأن يكتب أيضًا عن تطور الحياة النيابية فى مصر، وهى جميعًا مما يمكن أن نعدّه الصورة الفكرية لوقائع وأحداث تناولتها مذكراته السياسية فى الجزأين الأول والثانى.

وإن لم يشأ له القدر أن يمضى فى الكتابة عن عهد الراشدين إلى نهايته وأن يخلص منه إلى قيام الإمبراطورية الإسلامية فقد ترك لنا حصيلة من الإذاعات والأحاديث والمحاضرات تناولت نشأتها وأسباب قوتها ونظام الحكم فى الإسلام وسبقه إلى ما يثور به العصر والفكر المعاصر من صور الاشتراكية والديمقراطية ومعانى الحرية فى شتى صورها مما أطلق عليه «الحريات الأربع»، كما يطوف بنا فى ربوع الأماكن المقدسة الإسلامية والمسيحية واليهودية فى صورة سريعة وبسيطة - كما يقول - ليبرز من خلالها ما «بين الأديان الثلاثة من صلة، يتضح أنها ترجع إلى أصل واحد، وتستمد وجودها فى صفاته من ينبوع واحد، وهذا الأصل الأزلى الخالد هو الحق جلّ شأنه، تجلّى على موسى فكلمه تكليما، ونفخ فى مريم من روحه فكان عيسى كلمته إلى الناس، وأوحى إلى محمد آياته وكلمه هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان».

فإذا عرض لنظام الحكم الإسلامى، فإن الأساس الذى يقوم عليه، ويبرزه الدكتور هيكل، فهو «الإيمان بالله لا إله إلاّ هو، وبأنه وحده تجب له العبادة فقد أدّى هذا الإيمان إلى تقرير قواعد المساواة والإخاء والحرية «فالمسلمون جميعًا سواسية أمام الله تجرى عليهم سنته بالقسط لا تفرق بين أحدهم وصاحبه، ولا فضل لعربى منهم على عجمى إلاّ بالتقوى.. وهم لذلك إنما يجزون بأعمالهم، إنْ خيرًا فخير وإن شرًا فشر، والناس إخوان يجب أن تقوم المحبة بينهم مقام اليأس، بل مقام القانون، فلا يكمل إيمان أحدهم حتى يحبّ لأخيه

ما يحب لنفسه.. والناس أحرار فى كل شيء، أحرار فى العقيدة نفسها.. فلا إكراه فى الدين ولا إيمان إلاّ بعد اقتناع بالحجة والموعظة الحسنة» وكانت هذه هى المبادئ الأساسية للحكم فى العهد الإسلامى الأول.. ثم تطورت الفكرة الأساسية فى الحكم إلى النقيض مما كانت عليه حتى أصبح لأمير المؤمنين ما كان لإمبراطور الروم ولعاهل الفرس من سلطان غير محدود.. أغرى كل حاكم فى ولاية إسلامية أن ينتقض على أمير المؤمنين كلما استطاع أن ينتقض عليه.. وبدأ التدهور الذى انتهى إليه هذا التطور».

«فإذا أردنا أن نعرف نظام الحكم فى الإسلام، وجب علينا - كما يقول - أن نرجع إلى المبادئ الأساسية التى قررها» فإذا عرفناها.. لم يبق لدينا ريب فى أن الإسلام والديمقراطية يلتقيان فى الأمور الجوهرية جميعًا».

وإذا كانت صور الديمقراطية الإسلامية «تختلف بعض الاختلاف عما نعهده اليوم فى نظم عصرنا الحاضر، فإنها تتفق وإياها فى الغاية وفى المبدأ».

وإذا كان هناك من يقول: «إن الإسلام يقر حكمًا غير الحكم الديمقراطى، ويلتمسون الحجة على ذلك بما كان فى عصور مختلفة من حياة الأمم الإسلامية، فأولئك يخالفون المبادئ الجوهرية للإسلام على ما خرج فى صفاته من شبه الجزيرة.. وحسبى دمغًا لحجة هؤلاء أن المسلمين لم يصبهم ما أصابهم فأحزنهم إلاّ ماكان من الحكم المطلق».

وفى كل ما يذهب إليه الدكتور هيكل يرى «أن النظام الإسلامى لا يقف فى سبيل كل تطور تمليه مصلحة الجماعة..» وأن «نظام الحكم لا يقصد به التفاصيل التى يراها بعضهم كل شىء، إنما يقصد بنظام الحكم فى الإسلام تحقيق الفكرة السامية والمثل الأعلى والمبادئ العامة التى أرادها الإسلام أساسا للحضارة، فإذا حقق النظام هذا الغرض وإن تجاوزته بعض التفاصيل، كان النظام الإسلامى القدير على التطور مع تقدم الإنسانية فى تفكيرها وعلمها وفنها.. وإن هو وقف عند التفاصيل دون تحقيق الغرض الأسمى، كان نظامًا جامدًا متداعيا كالنظم التى قامت فى عهود الانحلال».

وقد وضع الإسلام من قواعد العدالة الاجتماعية ما يناقض «الشيوعية ويحاربها» فالإسلام على خلاف الشيوعية «يعتبر الملك والأسرة والميراث نظمًا أساسية فى الحياة الاجتماعية» لكنـه يرى «الغنى الفاحش مصدر طغيان يخشى خطره» فحال «دون قيام الملكية الكبيرة على أساس غير المجهود الذاتى، فحرم الربا، وجعل الميراث وسيلة فعالة لتجزئة الملك، ثم فرض للفقراء حقوقا على الأغنياء، وجعل هذا كله من فرائض الإيمان «فكفل بذلك – لما وعاه الدكتور هيكل – «الاشتراكية الإسلامية القوّة والبقاء.. فالقرآن لم يتناول تفصيل المسائل بل مبادئها، ثم ترك التفاصيل ينظمها الناس بما يحقق مصالحهم».

ولم يغفل الإسلام العلاقات الدولية، بل «لقد نادى بالفكرة

الدولية التى حققتها الأمم الديمقراطية سنة ١٩١٩ فى أعقاب الحرب الكبرى الماضية، أقصد فكرة عصبة الأمم» ويقيم الدكتور هيكل الدليل على ذلك مما جاء فى قوله تعالى: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين * إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون﴾..

فإن لم تكن عصبة الأمم صورة لما سبقها فى العلاقات بين الأمم، فإن احترام العهود والمواثيق مبدأ من مبادئ الإسلام الأساسية وهو الأساس فى العلاقات الدولية.

وحين صدر ميثاق الأطلنطى بالحريات الأربع فى خواتيم الحرب الثانية: حرية العقيدة، وحرية الرأى، والتحرر من العوز، والتحرر من الخوف، لم ير فيها جديدًا علىٰ ما جاء به الإسلام..

وهكذا يرى الدكتور هيكل أن النظام الإسلامى الذى يقوم على الواقع الحقيقى من تعاليم الإسلام ومبادئه صالح لكل زمان ومكان وأنه أساس قويم لحضارة إنسانية رفيعة.

المفكر السياسى

لايكتمل بحثنا عن الدكتور هيكل كمفكر، مالم نعرض لفكره السياسى، والفكر السياسى هو ما يعالج مسائل السياسة والحكم من حيث النظرية ومن حيث التطبيق. وقد خاض ميدان السياسة مفكرا قبل أن يخوضها عاملا منتميا لحزب أو عضوا مؤسسا فى حزب أو متحدثا بلسان حزب، أو رئيسا لحزب، وشتان ما بين ظروف العمل السياسى فى حزب أو متحدثا بلسانه ، والفكر السياسى الذى يراه المفكر عقيدة ومذهبا فقد يلزم العمل السياسى والانتماء الحزبى بالإغضاء أحيانا عما يلزم به الفكر السياسى من عقيدة أو مذهب وإن لم يبلغ الإغضاء مبلغ التحيف أو الخروج على القصد، فقد لايتجاوز الإغضاء الوسيلة ولا يعدوها إلى الغاية، فالوسيلة إن اختلفت لا تهدر المقومات الأساسية للفكر السياسى، فإذا أهدرتها فقد تحول الفكر السياسى من مذهب إلى مذهب آخر.

وقد اتخذ الدكتور هيكل القلم وسيلة للتعبير عن فكره السياسى فيما كتبه بعيدا عن الانتماء الحزبى، حيث تلزم الحزبية - والأحزاب

هى قوام الديمقراطية والحكم الديمقراطى - عضو الحزب بالنزول على رأى جماعة الحزب والقائمين عليه، والعضو فى حزب غير المنتمى إليه، حيث يقف عمل المنتمى عند الإدلاء برأيه فى الانتخابات فالمنتمى أو المتشيع لا يحكمه غير إيمانه بسياسة الحزب والانحياز إلى مبادئه والتشيع لها والولاء لقيادته حين يرى منها ما يعبر عن إرادته، فإذا افتقد التعبير عنها امتنع عن التصويت لها فى الانتخابات العامة وسيلتها للوصول إلى السلطة التى تحكم إذا ما فازت بالأغلبية فالالتزام لديه قرين التوافق، بينما الالتزام فى القيادة دليل التماسك الحزبى الذى يخضع الجميع فيه لرأى الأغلبية. فإذا اختل التماسك كان الانهيار الذى يودى بكيانه العام. وكثيرا ما اختلف الدكتور هيكل مع قيادة الحزب إلا أن هذا الخلاف لم يجاوز السلوك أو الوسيلة إلى الغاية.

وحين اختار جانب حزب الأمة منذ بداية انتمائه الحزبى، كان الاختيار نابعًا من إيمانه بمبادئه ورضائه عنها ولم يكن لصلته بأستاذه أحمد لطفى السيد أحد مؤسسى الحزب ولسان حاله، ولا لقرابته له أى تأثير على اختياره، فقد رأى فى مبادئ الحزب ما يستوى وفكره، فلم يكن حزب الأمة رأى جماعة من الأعيان تحكمهم مصالحهم الحقيقية لمهادنة الاحتلال والسير فى ركابه - كما يقال - ولكنه كان تعبيرا عن فكر وغاية أن تكون مصر للمصريين لا للخديو ولا للترك ولا لسلطة الاحتلال، ولم يكن وصفهم بالأعيان وإن كان حقا، أنهم تفردوا بتمثيل الأعيان، فقد جمع الحزب الوطنى من أعيان

المصريين وأعلامهم أكثر مما جمع حزب الأمة كما جمع الوفد المصرى من أعيان المصريين وأصحاب الضياع أكثر مما جمع الأحرار الدستوريون منهم، ولم يكن الفرق بين هؤلاء وأولئك إلا فى إيمان السواد الأعظم من الشعب وتبعيتهم لهذا الحزب أولذاك وقد فاز الحزب الوطنى منهم بالغالبية العظمى ثم كانت هذه الغالبية للوفد المصرى بعد قيامه بزعامة سعد زغلول فقد استهوى الجماهير كما استهواهم من قبل مصطفى كامل وكان الفرق بينهما جميعا فى تعلق الجماهير بها وانحيازهم إليها. وغالبا ماينساق السواد الأعظم فى الشعوب التى تجاهد لاستقلالها للعاطفة دون الفكرة، والعاطفة مبعثها الوجدان الذى يحرك الحماس، والفكرة تنبع من العقل، وديدن العقل الروية والأناة دون التحمس أو الانفعال والشعوب فى حماسها وعاطفتها الوطنية المشبوبة لا ترضى بما هو الكمال ولا يرضيها الواقع العملى وإن كان أدنى إلى بلوغ الغاية وتحقيق القصد.

فلم يكن الخلاف - مثلا - بين لطفى السيد ومصطفى كامل إلا فى الوسيلة دون الغاية فكل منهما يدعو إلى استقلال مصر ويبتغيه، وما من إنسان تغنى بمصر والانتماء إليها كما تغنى مصطفى كامل، وحين راح يلهب الشعور الوطنى ويثيره على الاحتلال ويتخذ من الخديو حليفا ضد المعتمد البريطانى، كان يعتمد على فرنسا وأوربا لحمل الإنجليز على الجلاء بعد وعودهم المتكررة بذلك واعترافهم بالسيادة العثمانية على مصر، بينما رأى لطفى السيد

الاعتماد على المصريين وحدهم لتحقيق الاستقلال وكان يرى استبداد الخديو أشد نكرًا من استبداد الاحتلال وتابعه من الأعيان المصريين من رأوا أن مصالحهم قد نمت فى ظل الاحتلال أكثر مما نمت فى ظل الحكم الخديوى، وقد عانوا وعانى أجدادهم من قبل من ازدراء الترك واستبدادهم وأثرتهم – وهو ما كان من أسباب الثورة العرابية – ما قربهم إلى الاحتلال دون الخديو. ولم تكن دعوة لطفى السيد للدستور لضيقة بدعوته للاستقلال، إلا حذرا من عودة الاستبداد الخديوى ومظالم الأتراك والجراكسة فضلا عن إيمانه بالديمقراطية أساسا للحكم.

فإذا كان الدكتور هيكل قد تشيع للجريدة ولحزب الأمة، لأننا «نحن أبناء الريف المصرى قد بقيت فى أذهاننا صورة قاتمة من حكم الترك ومن حكم الخديويين أنفسهم حين كان للترك السلطان المطلق الذى أدى إلى ثورة عرابى... وظل أبناء الريف من أمثالنا يفزعون إذا قيل لهم إن السلطان سيعود كما كان صاحب السلطة الشرعية، وأن الغزّ سيتولون الأمر من جديد».

وقد بقيت مصر بعد الاحتلال البريطانى تابعة للسيادة العثمانية، مستقلة استقلالا داخليا عن تركيا، محرومة من هذا الاستقلال الداخلى بسلطان الإنجليز، وللأجانب المقيمين فيها على اختلاف أجناسهم امتيازات تجعلهم أعلى من أبناء مصر رأسا وأوفر كرامة، تغدق عليهم الامتيازات الأجنبية وحماية الإنجليز لهم السلطة والتميز والاستقلال ويزيد عليها القدرة على التحايل والنصب.

هذه المجموعة من العلل السياسية والاجتماعية والاقتصادية كانت تجثم على صدر مصر وتضعف روحها المعنوية أيما ضعف، فأيها يجب البدء به «فالتخلص منها جميعا دفعة واحدة أمر غير ميسور، هنا اختلف الرأى وعلى أساس هذا الاختلاف - كما يقول - قامت الأحزاب المصرية» وكان عليه أن يختار من بين تلك الأحزاب - ولم يكن هناك شك فى أن يختار - وهو أحد أبناء الريف - الحزب الذى يقاوم سلطان الخديو ويطالب بالدستور إلى جانب الاستقلال، فإذا كان قد ذهب مذهب لطفى السيد بتحقيق الاستقلال بكفاح المصريين أنفسهم، فإن الوسيلة إليه وحدة المصريين؛ لذلك ظل طوال حياته الحزبية داعيا إلى ائتلاف الأحزاب.

ولعل الدكتور هيكل كان أشد بغضًا لاستبداد الخديو من أستاذه لطفى السيد، فحين دعاه لمقابلة الخديو فى زيارته للمنصورة قبيل قيام الحرب العالمية، أبى واستنكر أن يطلب إليه ذلك، وقال له: «لقد علمتنا منذ ظهرت الجريدة مالا يسمح لى بإجابة هذه الدعوة».

مع الأحداث:

كانت تلك هى البداية فى تفكير الدكتور هيكل السياسى، فلما وضعت الحرب أوزارها وأعلنت الهدنة «فى ١٣ نوفمبر تناقلت الأنباء أن وفدًا مصريا تألف برياسة سعد باشا زغلول للسعى إلى الاستقلال حيثما وجد للسعى سبيلا، وأنه تألف من سعد زغلول، وعلى شعراوى وحمد الباسل، وعبد العزيز فهمى، وعبد اللطيف

المكباتى، ومحمد على علوبة... وعرفنا أن ثلاثة من أعضاء هذا الوفد، هم سعد زغلول وعلى شعراوى، وعبد العزيز فهمى، قابلوا السير ريجنالد ونجت ممثل إنجلترا فى مصر، وأبلغوه أنهم بوصفهم نواب الأمة، يطلبون إلى إنجلترا أن تعترف باستقلال مصر وأن مصر مستعدة متى اعترفت إنجلترا بهذا الاستقلال، أن ترتبط مع إنجلترا بمعاهدة صداقة تكونان فيها ندين متساويين وتتعاونان بحكمها فى مواجهة الظروف الدولية إذا اقتضت الظروف الدولية هذا التعاون».

كان هذا هو الإطار الجديد لسعى المصريين فى طلب الاستقلال، وقد صدرت مبادئ الدكتور ويلسون بحق الشعوب فى تقرير مصيرها.

ولم يحسن الدكتور هيكل الظن بدول الحلفاء، اقتناعاً منه «بأنها أرادت بموافقتها على مبادئ ويلسون الأربعة عشر كسب الحرب من غير أن تنفذ هذه المبادئ» فهل وضع الوفد خطته لذلك؟ هذا ما فكر فيه، وذهب يسأل أستاذه لطفى السيد عنه «وكان الرجل صريحا فى إجابتى. قال لى: إن خطتنا أن نسافر إلى باريس، وأن نطرح قضيتنا على مؤتمر السلام، وأن نطلب تطبيق حق تقرير المصير على مصر والسودان، فإن أجبنا إلى مطلبنا كان ذلك ما نبغى، وإلا ذهب رشدى وعدلى إلى لندن لمفاوضة الحكومة البريطانية فى تنظيم العلاقة بين مصر وإنجلترا فى حدود الحماية، تنظيما أساسه قيام

الحكم الدستورى الصحيح فى البلاد، فقيام هذا الحكم يرفع عنا مانئوء به من سلطة مطلقة شرعية كانت تلك السلطة أو فعلية، ويدنينا من هدفنا فى الاستقلال، إذ يتيح لنا فرصة النهوض بالشعب فى مدارج الرقى، فإذا بلغ أشده لم يكن لغيره سلطان عليه».

وطوى الدكتور هيكل ماسمع فى جوانحه «فلو أنه عرف لهوجم الوفد وأعضاؤه على أساسه، ولأدى ذلك إلى فرقة فى البلاد وشقاق، ومن الخير أن تبقى وحدة البلاد سليمة فى هذا الظرف الدولى الدقيق الذى تمرّ به».

وحين ألف مع بعض رفاقه «الحزب الديمقراطى[1]» نراه يعلن تمسكه بالحرية الفردية أساسا لبرنامج الحزب الاقتصادى، مما يفصح عن نزعته الليبرالية فى فكره السياسى، ولكنها الليبرالية التى تكفل للناس على السواء «عيشا إنسانيا» كريما.

ولعلنا نرى فى برنامج الحزب ما يهدينا إلى فكر الدكتور هيكل السياسى، بل وفكر أولئك الصفوة من الشباب المثقف ممن شعروا «بأن علينا معشر الشباب واجبا يتحتم أداؤه للوطن».

وقد نص برنامج الحزب على استقلال مصر الداخلى والخارجى، وإقامة حكم نيابى يمثل الشعب تمثيلا صحيحا، وتطبيق النظام

---

(١) تكون مجلس إدارة الحزب الديمقراطى من تسعة أعضاء هم: محمد حسين هيكل. محمود عزمى. مصطفى عبد الرازق. منصور فهمى. راغب إسكندر. عزيز ميرهم. حسن نافع. حسين يوسف عمرو. محمد أحمد عابدين.

القضائى فى مصر على كافة السكان سواء بسواء، والمساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات، وحرية الرأى والكتابة والاجتماع، وأن تكون مرحلة التعليم الابتدائية إلزامية ومجانية للبنين والبنات على السواء، والعمل على رفع مستوى الطبقة العاملة ماديا وثقافيا وتنمية ثروة البلاد إلى أقصى حد يحقق الخير للناس، والاعتراف بحق كل شعب فى تقرير مصيره، والعمل على قيام جماعة دولية تقضى فى النزاع بين الشعوب وأن يكون لأحكامها قوة النفاذ.

وكان برنامجا طموحا دون شك يحمله طموح الشباب وحماسه، لكن سرعان ما ابتلعت الحركة الوطنية حماس أصحابه فذهب كل منهم إلى حيث تحمله اتجاهاته وقدراته. أما الدكتور هيكل فقد انتهت مسيرته إلى الأحرار الدستوريين وقد رأى فى اتجاهاتهم ما تطيب له نفسه ويستريح إليه فكره، وقد رأى فى خطاب الافتتاح الذى ألقاه عدلى يكن، «قطعة بارعة من الأدب السياسى فى اعتداله وفى تصويره المبادئ التى يزمع الحزب تحقيقها، وفى مقدمتها استكمال استقلال مصر بعد الخطوة التى خطوناها بتصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢، وصدور الدستور الذى وضعت اللجنة مشروعه، فأتمت بذلك عملا عظيما لخير البلاد، إذ قررت سلطة الأمة وحقوق العرش، أما المبادئ الاقتصادية والاجتماعية التى تناولها الخطاب، فكان أساسها النظرية الفردية القائمة على أساس من احترام تام لحرية الفرد المطلقة ولحرية التجارة بتقرير سياسة الباب المفتوح، على أن الفكرة الفردية الواضحة فى الخطاب قد خضعت فيه كذلك

للاتجاه العام الذى أعقب الحرب العالمية، والذى جعل هذه النظرية الفردية تتشح بظاهر من الاشتراكية لا يجنى على الحرية الفردية، ولكنه يخفف من غلواء المذهب الفردى، إذ يجعل للأفراد حقوقا على الجماعة من يوم مولدهم يتسلحون بها للكفاح فى الحياة، على أساس يدنيهم من العدالة الاجتماعية وإن لم يذهب فى ذلك إلى حدّ تحكم الدولة فى مصايرهم تحكما تقره اشتراكية الدولة وما إليها من المذاهب».

كما رأى فى الخطاب «نغمة الدعوة إلى الوحدة القومية وتحذير أبناء مصر من مغبة الخلاف بينهم..... وسياسة تتفق فى جملتها وفى تفصيلها مع آرائى، فهو يقدس الحرية الفردية وأنا أقدسها، وهو يكبر حرية الرأى، هذه الحرية تحل فى نفسى محل الإيمان الذى لا يتزعزع، وهو على نزعته الفردية يدعو إلى العدالة الاجتماعية كما صورتها فى مقدمة كتابى عن - چان چاك روسو - الذى صدر قبل ذلك بعام وأشهر، وهو يحبذ الوحدة القومية، وقد كنت من دعاتها يوم كان الخلاف بين سعد زغلول وعدلى يكن على أشده، وهو يؤيد حرية التجارة ما لم تحتج صناعة ناشئة إلى الحماية حتى تقف على قدميها، وأنا من هذا الرأى، لى إذن أكبر الرجاء، يوم تظهر (السياسة) أن أبشر بهذه المبادئ فى إيمان وقوة يحملان كل متردد على اعتناقها والاقتناع بها».

كانت تلك هى الأصول التى يقوم عليها فكره السياسى، وحين

التقى بالفكر الإسلامى، لم يجد فيه ما يخالفهابل رأى فى المبادئ التى قررها الإسلام مايزكيها ويعززها فقد أقر الإسلام الشورى وهى جوهر الديمقراطية، وأقر اختيار الناس لمن يلون أمورهم، ونبذ أن يكون الحكم وراثيا، وأقام قواعد الحرية والعدالة الاجتماعية على أساس من الإخاء يسوى بين الناس جميعًا ونبذ القومية إلى العالمية وأقام العلاقات الدولية على عهود ومواثيق واجبة الرعاية والاحترام، وقنن للحرب ووضع لها الأصول والقواعد، فلا تشن بغيًا، وإنما هى لرد البغى ورفع الظلم والحفاظ على مجتمع الخير والصلاح، ثم كان للذمى والمستأمن فى بلاد الإسلام ما للمسلم من حقوق وعليه ما عليهم من واجبات مع كفالة حريته الدينية والشخصية فيما يتعلق بأحكام دينه، وحرر الناس من الخوف ووضع من القواعد مايحررهم من العوز وصان حرية الرأى وحرية العقيدة، وفاق الإسلام كل تشريع دولى آخر حين جعل للمستأمن حق الحماية والرعاية وإن كانت داره فى حرب ناشبة مع المسلمين مادام لاينكث بعهد الأمان ولا يفتات عليه بعذر أو خيانة تضر بالدولة.

الفكر والعمل:

وقد ظل الدكتور هيكل طوال حياته حفيًا بتلك المبادئ التى قام عليها فكره السياسى منذ البداية، فإذا رأى فى القائمين عوجًا أو لينًا آثر أن ينأى بنفسه عنهم.

ولم يكن العنف من شيمته، وإن لم يقعد به عن حرية الرأى

وشجاعة الفكر. فالاغتيال عدوان «وصنيع جبان» والعبث بالعقول لا يطفئ وهج الحق، ومن اتهم مصريا بالخيانة فهو الخائن لأنه يزعزع عقيدة الأمة فى أكرم بنيها والاستسلام للهزيمة فرار من الميدان، والإرهاب لا يرد صاحب الحق عن طلبه، ولايعوق «أنصار الحرية عن دفع العدوان عن الحرية»... والقلم الذى يجرى بالحق يخط بحروف من نور آى الهدى إلى الصراط المستقيم.. ولا يصح أن يصد الرأى العام سياسيا عن المضى فيما يؤمن بأنه يحقق مصلحة لبلاده، ولا يرى فى مبادئ الدستور منذ صدر عيبًا «إنما العيب فى التنفيذ، فإذا صلح القائمون على تنفيذ الدستور وشعر الشعب بواجبه وتبعته، كانت هذه المبادئ خير ما يؤدى إلى تقدم البلاد ورقيها» لذلك يناشد محمد محمود ألّا يفكر فى تعديل الدستور «وأن ترفضه إذا عرض عليك، وإن أدى رفضه إلى استقالة الوزارة... وكذلك اتفقنا على أن التعديل فى نصوص الدستور لا محل له» ويرى فى سياسة الأحزاب «أن ينصر كل حزب مبادئ يعتقد أن تنفيذها يحقق مصلحة البلاد العليا، وأن هذه المبادئ لا علاقة لها بالمصالح المحلية على الإطلاق، وهذا ما كنت أنا وما أزال أعتقده... فإذا صح أن تبذل الأمة تضحيات فلتكن فى سبيل الاستقلال يتمتع به الوطن، لافى سبيل الحكم يستأثر به حزب أوآخر.... ولا يزال ساسة الشرق أو كثرتهم يفكرون فى المسائل العامة وكأنها بعض شئونهم الخاصة، فلا تمتد أبصارهم إلى ماوراء الحاضر، ولا يعنون بالمبادئ لذاتها، بل بما تجلبه لهم من عطف الجمهور إذا كان للجمهور

أثر فى الحكم، أو من رضا من يملكون بيدهم تولية الأمر لرجل أو آخر، أو لهيئة أو أخرى، فهذا الذى يؤمن بالاشتراكية لا يؤمن بشىء منها، ولكنه يراها وسيلة صالحة للتظاهر ولكسب رضا من يعنيه أن يكسب رضاهم، والذى يبدى من التشبث بالدستور ماتحسبه صادرًا عن عقيدة وإيمان قد يكون فى دخيلة نفسه ديكتاتورى النزعة إلى غير حد، المبادئ عندهم سلعة وليست عقيدة، وهم يرفعون عقيرتهم بها ماآمنوا أن تجرّ لهم مغنما، فإذا خافوا من ورائها أى مغرم تناسوها ثم نسوها ثم أنكروها إذا كان نقيضها يجر الغنم».

وما أحوجنا - كما يقول - «إلى إذاعة الروح الدستورية وتمكينها فى شئوننا العامة فنحن بحاجة إلى الجوّ الذى تعيش فيه الحريات وتترعرع، بحاجة إلى الأخذ بأسباب التربية السياسية الصحيحة وإشاعة تقاليد الحكم السليم، بحاجة إلى وضع الأسس الكبرى للحياة القومية ورفع مستوى الحياة العامة والخاصة بحاجة إلى توفير أسباب الكفاح فى المعترك الدولى وأسباب الدفاع عن سلامة أراضينا».

وللحرية أثرها «فى خياة الأفراد وفى حياة الجماعات.. فالعلاقات القائمة بين الأفراد على أساس من التفاهم الحر هى التى تبقى، لأن هؤلاء الأفراد أقاموها مختارين لا يتحكم أحدهم فى صاحبه ولا يكرهه على شىء لايريده».

«والأمر كذلك بخاصة إذا كان هذا التفاهم حرا غير مشوب

بشائبة تجعل أحد الطرفين يسعى للتخلص من نتائجه، إذا واتته الفرصة لهذا التخلص، وعلاقات الأمم القائمة على التفاهم الحر شأنها كشأن علاقات الأفراد سواء بسواء، فإذا ارتقى الأمر من مستوى التفاهم على المنافع الخاصة أو العامة إلى حرية كل فرد فى إعلان رأيه، والتعبير عنه صادق القصد حسن النية، كانت هذه الحرية أقدس شيء فى الحياة وأعزه، ثم كانت إلى ذلك غذاء الحياة الاجتماعية فى الأمة، حافزة الإنسانية كلها إلى التقدم خطوات فسيحة نحو الحضارة المثلى».

«وتاريخ الإنسانية يشهد بهذه الحقيقة، فقد تنقلت المدنيات فى حقب التاريخ المختلفة من الشرق إلى الغرب ومن حوض البحر الأبيض إلى حوض الأطلنطى وإلى حوض الباسفيكى، فلم تكن مدنية تزدهر ازدهاراً حقيقيا فى غير ظلال الحرية العقلية الصحيحة»..

«فإذا أظلت الحرية الناس، كانت الفلسفة وكان العلم والأدب والفن، ترتقى كلها وتنتظم الجماعة فى كل طبقاتها، وتدفع الجميع إلى الأمام، يتنافسون متضامنين فى سبيل الرقى، فإذا الصناعة تعظم، وإذا الزراعة تينع، وإذا التجارة تتضاعف ثمراتها، وإذا النشاط الإنسانى فى شتى صوره يتضاعف تضاعفًا هندسيا مطردا».

«ثم لا يكون هذا كله رهنا بإرادة رجل يوجهه، فاذا مات الرجل تضاءل النشاط وذوت مظاهره، بل كان ذلك قائمًا بذاته، حيا

بحياة الجماعة المستظلة بعلم الحرية العقلية باقيا مابقيت هذه الحرية تغذيه وتجرى بواعث الحياة فيه».

«والعالم بأسره يتمخض اليوم عن حضارة عالمية عامة، تشمل العالم كله، فى كل أرجائه وأقطاره، ولا سبيل لهذه الحضارة أن تقوم وتزدهر إلا أن تظل الحرية العقلية العالم بأسره، وأن يتعاون الناس من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب فى ظلال هذه الحرية لإقامة هذه الحضارة وتثبيت أركانها ودعائمها».

«وما كان دين من الأديان، ولا كانت عقيدة من العقائد لتحول دون هذا التعاون، فالأديان كلها أساسها الحق والخير، وكل حضارة تقوم ويرجى لها البقاء لا يمكن أن تقوم أو أن تبقى إلا على أساس من الحق والخير».

هذه المقتطفات من مذكراته السياسية ومن أحاديثه عن نظام الحكم فى الإسلام تفصح عن فكره السياسى وعقيدته السياسية، فحرية الفكر وحرية التعبير وحرية العقيدة أو الحرية فى كل صورها هى أساس عقيدته السياسية فهى التى تقيم الديمقراطية السليمة وهى التى يقوم عليها حكم صالح يعمل لخير المجموع، وهى أساس التعاون بين الناس على اختلاف أجناسهم وشعوبهم وهى الخطوة الأولى للتقدم والارتقاء فى بناء الحضارة الإنسانية.

وإنه ليقول إن قرونا عدة قد انقضت مابين قيام الإمبراطورية الإسلامية وبدء انحلالها «نشر أبناء الإمبراطورية فى أثنائها حضارة

جديدة، أظلت العالم ووجهت مصائره، ثم استجنت بعد انحلال الإمبراطورية منتظرة أن تبعث من جديد».

«كيف استقرت الإمبراطورية كل هذه القرون؟ وما بالها لم تهب عليها ريح الفناء التى هبت على إمبراطورية الإسكندر وعلى إمبراطورية المغول؟... أستطيع أن أجمل هذه الأسباب فى سبب واحد.... ذلك أن العرب لم يندفعوا إلى الغزو تحركهم مطامع مادية صرفة، بل اندفعوا إليه مؤمنين بأن القدر ألقى عليهم رسالة وأوجب عليهم تبليغها للناس كافة لخير الإنسانية فى مشارق الأرض ومغاربها، وهذا الإيمان هو الذى أقام الإمبراطورية، وهو الذى أبقاها مابقيت من القرون فلما اضمحل هذا الإيمان بدأ الانحلال يدب فى أرجاء الإمبراطورية.. يمزقها وينتهى بها إلى مثل ما انتهت إليه الإمبراطورية البيزنطية والإمبراطورية الفارسية».

«لم تكن هذه الرسالة التى آمن بها العرب بأن القدر ألقى عليهم تبليغها للناس، شيئاً آخر غير رسالة الحرية والإخاء والمساواة فى أسمى صورة يدركها العقل لمعانى الحرية والإخاء والمساواة، فإله الناس إله واحد، والناس متساوون أمام هذا الإله الواحد، لا فرق بين عربى ولا عجمى إلا بالتقوى.. وهم إخوة فى هذه المساواة يشد بعضهم أزر بعض، وهم مع هذا الإخاء وهذه المساواة، أحرار لا سلطان عليهم لغير الله، أما وهذه المبادئ مقدسة فكل نظام يوضع للجماعة يجب أن يقوم على أساسها، فلا يكون لخليفة المسلمين وأمير

المؤمنين امتياز على أحد من رعاياه، بل إن عليه لواجبا أن يخدم هذه المبادئ المقدسة، أن يكون قد خالف ما أمر به الله».

فلما استقر المسلمون فى البلاد التى فتحوها، أقروا هذه المبادئ السامية بين أهلها، جعلوا التسامح الدينى أساس حكمهم حيث نزلوا فلم يكرهوا أحدا من أهل البلاد المفتوحة على الإسلام، وأباحوا للناس من ألوان الحرية ماكان معروفًا فى ذلك العهد... والحرية العقلية، وحرية القول فى مقدمة ما أباحوا، واحترموا شعائر الجميع وعقائدهم، وجعلوا العدل بين المسلم وغير المسلم أساس الحكم».

«فلما رأى الناس ذلك، ورأوا المسلمين أنفسهم يستمتعون من ألوان الحرية العقلية والحرية العامة بما لم يكن له وجود من قبل فى بلاد الروم ولافى بلاد العرب... كان ذلك داعيًا لهم إلى الدخول فى الدين الجديد، والتمتع بما قرره من مبادئ الحرية والإخاء والمساواة».

«وقد كان للحرية العقلية ولحرية الرأى من القدسيّة مايشهد به اجتهاد المشرعين والفقهاء فى القرون الأولى وما يدل عليه مانقل من كتب الفلسفة اليونانية، وما أخذ به المفكرون والفلاسفة الإسلاميون من مبادئ هذه الفلسفة اليونانية وما أضافوه إليها من عندهم».

وقد انحلت الإمبراطورية الإسلامية «لأن الرسالة التى آمن بها المسلمون الأولون توارت وراء الحجب...

«أفقدر لها أن تبعث من جديد؟ ذلك ما أعتقده... وعلمه عند ربى».

خاتمة

كان المسار طويلا وكان اللقاء عسيرا، لقاء ثقافتين ولقاء حضارتين، فى عقل شاب نابه يتلمس طريقه ليهدى إلى بلده خير ما يهديها طريقها إلى المستقبل، مستقبل لا ينفصم فيه مسار التاريخ. فهذا البلد الذى نشأ على ترابه وأظلته سماؤه ونشق ريحه الطيب، وهذه الحضارة التى تضرب بجذورها فى أغوار القدم، والتى تنحدر بأصولها إلى ماض عريق، فرعونية، قيل إنها تمت إلى أصول آسيوية وليست حامية كما كان السائد من قبل، بل قيل إن مصدرها كان جزيرة العرب، فإلى ما قبل أربعة عشر ألف عام كانت الثلوج تكسو معظم بقاع آسيا وأوربا حتى هضبة إيران، وكانت الأمطار الغزيرة تغمر أرض الرافدين ووادى النيل، فتحول بينها وبين أن تكون موطنا صالحا للحياة، بينما كانت الحياة فى جزيرة العرب ينميها جو معتدل وأرض يانعة خصبة تغذيها أمطار وفيرة وبيئة ريانة فطابت الحياة لسكانها، وكانت لهم حضارة لم يكشف عنها التاريخ بعد، وإن أخذ بعض المنقبين من أمثال «كينانى» و «نيلدكه»

يكشفون عن بعض معالمها أخيرا، ويستهدونها حقيقة تقلب كثيرا من معايير التاريخ التى نعرفها، وهى أن الحضارة الإنسانية نشأت فى الجزيرة العربية وانثالت منها إلى البقاع المجاورة التى شهدت أقدم حضارات التاريخ التى نعرفها، فى سومر وفى وادى النيل، ولم يكن غريبا أن نبدأ حضارة الرافدين فى سومر، وأن تكون مصر هى المنتجع القريب للنازحين من الجزيرة العربية.

فما أن انقضى العصر الجليدى وخفت أمطار المنطقة المدارية، أخذ جوّ الجزيرة العربية يتغير عليها والمطر ينقطع عنها والجفاف يحلّ بها والجدب يجتاح أراضيها والحياة تفيض من بقاعها إلّا ما تكيف منها مع البيئة الجديدة، فأخذ أهلها ينزحون عنها إلى مواطن جديدة تخصب فيها الحياة وتمرع فكانت تلك الموجات العربية الأولى إلى الرافدين وإلى وادى النيل.

ولعل هذا العصر المطير هو ما تشير إليه الكتب المقدسة فى قصة نوح باسم الطوفان، وجاء ذكره فى القرآن:

﴿وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين﴾.

والجودى - كما يرى بعض المفسرين - جبل بالموصل كان معروفا فى القديم، وإن كنا نرى أن الجودى هو هضبة نجد، فقد كانت وحدها - كما تدل الأبحاث العلمية - المكان الصالح للحياة فى أرض مغرقة بالماء حينذاك، حتى تصور الباحثون الذين قالوا بأن

الجزيرة العربية هى المهد الأصيل للشعوب التى سكنت وادى النيل والرافدين والهلال الخصيب فى فجر التاريخ ، تلك الجزيرة كخزان هائل يقذف بين كل حقبة وأخرى مدى ما بينهما ألف عام بما يفيض عن طاقتها من البشر إلى البقاع المجاورة فى شكل موجات عرفت بالموجات السامية يميل الباحثون من المحدثين - كجواد على - إلى تسميتها بالموجات العربية دلالة على مهدها الأصيل، وكانت آخر تلك الموجات تلك الموجة العربية التى امتدت من هضبة إيران إلى شواطئ الأطلسى فى ظل الدولة العربية، وحملت تلك الموجة من تقاليدها ومأثوراتها وأعرافها ولغتها ودينها الجديد إلى تلك البقاع ما بقى سائدا إلى اليوم.

ويصدق علم الاجتماع تلك الظاهرة الفريدة من ظواهر التاريخ، فإن تلك الموجة العربية التى حملت لواء الإسلام فعبرت به إلى الصين وجنوب شرقى آسيا واجتازت العدوة إلى الأندلس بأوربا عبر أفريقية قد تركت سمتين مختلفتين جدّ الاختلاف فى تلك البلاد التى امتدت إليها، فبينا هى إسلامية فحسب فى تلك البلاد التى لم تصل موجة النزوح العربى فى الزمن القديم كالهند واندونيسيا وأفغانستان وإيران وتركيا إذ بها عربية إسلامية فى وادى النيل والرافدين والهلال الخصيب وشمال أفريقية حيث كان امتداد الهجرات العربية قبل الإسلام وبعد الإسلام، وقد نأى عنها البربر فى الشمال الغربى من أفريقية طويلا حيث كانوا بمنأى من المؤثرات العربية قبل امتداد الإسلام إليهم. وكان فيهم من عرامة الإسلام

ما كان لدى أندادهم فى إيران وتركيا وشرقى آسيا. مما يدل على ما كان بين الأصول القديمة والجديدة فى البلدان التى استعربت من وشائج القربى ووحدة الدماء وميراث التاريخ.

وإذا كانت حركة الاستعراب لم تلفح غير العرب من الشعوب الإسلامية الأخرى، فإن المؤثرات الإسلامية الدينية والثقافية الإسلامية التى تمثلتها اللغة العربية لغة القرآن قد امتدت إلى تلك الشعوب فاتخذت من الأبجدية العربية أبجدية لغاتها المكتوبة وبقيت حتى وقتنا هذا إلاّ فى تركيا حين استبدل بها كمال أتاتورك الحروف اللاتينية كما استبدل اسمه أيضا.

وكانت حضارة العالم الإسلامى إسلامية فى جوهرها عربية فى صورتها حيث تستهدى تعاليمها قرآنا عربيا خالصا قد يصبح عندما تكتمل دعوة الإسلام لتعمّ العالم كما هى رسالته أساس اللغة العالمية لعالم موحد فى ظل الإسلام حين تكتمل رسالته كما بعث بها نبى الإسلام العظيم ﷺ، واليوم إذ نصف تلك الحضارة بأنها إسلامية فنحن صادقون .وإذا قلنا هى عربية إسلامية فنحن أيضا صادقون أما إذا قلنا إنها حضارة عربية فحسب فإننا نجور على الواقع التاريخى أو الفعلى.

وبينما كان الدكتور هيكل يستهدى طريقه فى اللقاء العسير بين الشرق والغرب كانت مصر بتاريخها الفرعونى والإسلامى قبلته ورجاءه فى بعث أدب قومى وفكر مصرى، وكان يرى كما يرى غيره

من المجددين أن الماضى «هو الأب الطبيعى لحضارتهم ولأدبهم» أما وهذا الماضى ليس فرعونيا خالصا، بل إن «الزمن والركود الفعلى قد قطعا ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد يصلح بذرا لنهضة جديدة».

«ولكن ما هى هذه الحضارة» التى يتصل فيها حاضرنا بماضينا؟.. أهى عربية أم إسلامية؟ إنها الحضارة العربية الإسلامية دون ريب، فإذا كان المستشرقون، وطلاب البحث من الغربيين «يفدون إلى مصر، وإلى مختلف جهات الشرق العربى، يحاولون - فيما يقولون - تحقيق هذه المسألة، يتصلون بكل من يتوسمون فيهم أنهم رجال الأدب الحديث، ويلتمسون إليهم أن يدلوهم على عقيدتهم العلمية فى الأمر» أحضارة عربية أم إسلامية؟ وإن كان الدكتور هيكل لا يرى فيما ذهبوا إليه غاية البحث العلمى وحده، فربما شابت هذه الغاية «غايات سياسية» كألّا نقرن إلى الإسلام حضارة ما.

كان هذا ما كتبه فى «ثورة الأدب» عام ١٩٢٩، فإذا كانت حضارة العرب إسلامية فقد بقى «الأدب العربى القديم هو وحده الأثر الخالد لهذه الحضارة الإسلامية العظيمة التى سار فى ضوئها وعلى هداها عدة قرون، ولولا ما فى اللغة العربية لذاتها من قوة قدّسها القرآن الكريم وزادها جلالا وإعجازا، ولولا ما كدّست الحضارة الإسلامية من ثروة لم تنفد ولا سبيل إلى نفادها، إذن لرأيت اللغة العربية وقد أصابها ما أصاب اللغات اليونانية واللاتينية

والعبرية والآشورية والهيروغليفية ولأصبحت اليوم لغة تاريخية مستقلة عن وجود هذا العالم وحياته، لغة ندرسها للعلم بعصر من عصور التاريخ الإنسانى وكفى».

فإذا قلنا الحضارة الإسلامية فإنما نعنى حضارة كانت العربية لحمتها وكان الإسلام سدتها، ولا سبيل للفصل بين الاثنين، وبهذا استهدى الدكتور هيكل طريقه إلى إحياء الثقافة الإسلامية والفكر الإسلامى، واجتازت مصر على يديه فترة المخاض العسير فى اللقاء بين الشرق والغرب، وفى اهتداء الشرق الإسلامى إلى معالم حضارته الأصيلة والطريق إلى بعثها، لتسود العالم حياة أفضل، وتلك هى «بذاتها غاية الإسلام وغاية المصلحين الذين قاموا خلال العصور فى مختلف الأمم، يدعون الناس إلى حياة خيرا من حياتهم، وإلى فضائل خيرا من فضائلهم».

وإذا كان العالم قد انتهى فى ختام مجزرة الحرب العالمية الثانية إلى تقرير ما يسمى «بالحريات الأربع» فإن هذه الحريات هى قوام العقيدة الإسلامية، وأنت تتلو فى القرآن ﴿إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم﴾ وتتلو ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا﴾ ﴿ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾ وتتلو فى الحديث «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضا».

وقد وضع الإسلام «مبادئ لحضارة إنسانية من شأنها أن تتطور على الزمان ما تطور – كما يقول – ما تطور علم الإنسان وفنه

وتفكيره... والأساس الإسلامى للحضارة الإنسانية روحى، فإذا كنا فى حاجة إلى أن ننقل من حياة الغرب العقلية كل ما نستطيع نقله، إلّا أن ما فى الغرب من «حياة روحية غير صالح لأن ننقله».

ذلك كان فكر الدكتور هيكل، خاص به فى كل جوانب الحياة وطرق به شتى الرؤى والأحلام، حتى رسا به إلى مرفأ أمين دعا الناس إليه وبشرهم به ليكون دعاؤنا ودعاء أبنائنا:

«ربنا أنت السلام ومنك السلام فحيّنا ربنا بالسلام»

رحم الله الدكتور هيكل جزاء ما قدم لمصر ولأمة الإسلام من أدب وفكر راد بهما مسعانا إلى الرقى والتقدم والفلاح، نغذّ السير على الطريق نستلهم ماضينا أسباب قوتنا وأسباب ضعفنا لنمضى فى حياتنا على ثقة وبصيرة. ولنقل جميعا:

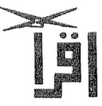
﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾. صدق الله العظيم.

فهـرس

رقم الإيداع		١٩٨٩ / ٧١٤٥
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-٢٧٥٢-٨	ISBN

١ / ٨٨ / ٥٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



بهذا الفعل الجميل (اقرأ) : تدعوك دار المعارف إلى قراءة تراث هذه السلسلة العريقة .. بأقلام كبار كتابنا .. لتعيش معهم .. كما عاش الآباء والأجداد .. وتكوِّن فى مكتبتك موسوعةً متفرقة فى فروع المعرفة المختلفة .

وإيمانًا منا بأن القراءة هى أقصر الطرق إلى الوعى والثقافة .. فقد يسَّرنا لك ذلك فى إخراج جيد .. وسعر زهيد .



